جامعة عبد الرحمان ميرة –بجاية–

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة:

الاغتراب في شعر الصعاليك لامية العرب للشنفرى

مذكرة مقدمة لاستكمال شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين:

* سلاف سعادي

* وليدة وامري

إشراف الأستاذ:

الدكتور آية الله عاشوري

السنة الجامعية: 2019/2018م

كلمة وشكر وتقدير

الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين خير خلق الله المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

نتقدم بالشكر والامتنان والتقدير إلى من قدم لنا يد العون بالإشراف والتوجيه والنصح والإرشاد الأستاذ المشرف

الدكتور آية الله عاشوري

وإلى جميع أساتذتنا الأفاضل الذين تتلمذنا على أيديهم وسوف نبقى مدينين لهم على كل ما قدموه لنا من علم ونصح وإرشاد فجزاهم الله عن كل طلاب العلم خير الجزاء.

الإهداء

أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع

إلى منبع الحنان أمي الغالية حفظها الله وأطال في عمرها

إلى من ساندني في مشواري الدراسي ولم يبخلنى في شيء

أبي الغالي حفظه الله

إلى رياحين حياتي إخوتي الأعزاء

إلى كل عائلتى الكريمة القريب منهم والبعيد

إلى صديقاتي وزملائي الذين وقفوا معي في السراء والضراء

إلى من لم يبخل علينا بتوجيهاته ومساعداته القيمة الأستاذ الذي كان

لنا الحظ في إشرافه على مذكرتنا ⚘الدكتور آية الله عاشوري⚘

⚘سلاف سعادي ⚘

الإهداء

إلى من ربياني صغيرا وأنارا لي الدرب، ورسما لي طريق الحياة، وعلماني أسمى معاني حب الخير والعلم، إلى من لا أجد عبارات تصف حبي وتقديري وامتناني لهما، إلى قرة عيني ونجاحي أمي وأبي أرجو من الله أن يحفظهما ويطيل في عمرهما.

إلى رفقاء دربي إخوتي وأخواتي الذين أتمنى لهم النجاح في مشوارهم الدراسي وفي حياتهم اليومية.

إلى صديقي الوفي الذي وقف معي في الحلوة والمرة أتمنى له النجاح في مشواره المهني والحياتي.

إلى كل الأهل والأقارب وجميع أفراد عائلتي.

إلى كل الذين قدموا لي يد العون والمساعدة لإنجاز هذا العمل المتواضع.

🌴وامري وليدة🌴

الإنسان اجتماعي بطبعه وهذا ما يستوجب مخالطة الآخرين، وتبادل المنافع ابتغاء تحقيق حاجاته الفطرية الأساسية من الشعور بالحب، والتقبل، والانتماء، والاندماج مع الجماعة، وهذه هي القاعدة، بل الأساس الذي تبنى عليه أسس الروابط الإنسانية، أما الاستثناء فهو عزلة بعض الناس واغترابهم عن الآخرين لأسباب ذاتية/داخلية أو موضوعية/خارجية.

الاغتراب ظاهرة عرفها الإنسان منذ القدم، بل عايشها، إنها تجربة نفسية شعورية، يتبناها كل من أحس بالقهر أو الظلم أو التهميش ... كما هو الحال بالنسبة إلى الصعاليك في العصر الجاهلي الذين ارتضوا حياة البراري والصحاري القفار على ما سلط عليهم من ذل واحتقار، أو ضيم وتهميش.

من أولئك الصعاليك نجد الشنفرى الذي تمرد على النظم السائدة في عصره، وانتفض ضد الظلم وقهر الأهل، وثار على الأعراف الجائرة والقوانين القاهرة، وقد نقل إلينا صورا من حياته تلك وما عاناه من حالة الاغتراب بكل أشكاله وبمختلف صوره، عبر أشعاره التي لا تزال مشرقة في الأدب العربي، ولاميته المعروفة بـــ "لامية العرب" هي أشهر ما نظم الشنفرى، والتي سنحاول من خلال بحثنا هذا أن نبرز تجليات الاغتراب بين ثناياها.

إن السبب الرئيس في اختيارنا لهذا الموضوع هو اهتمامنا بالشعر، خاصة أشعار الأوائل الذين سطع نجمهم في سماء الأدب العربي عبر كل الحقب، وأما عن اختيارنا للشاعر الشنفرى فكان فضولا منا لسبر أغوار عالمه الأسطوري البطولي وما يكتنفه من حالات اغتراب.

حاولنا من خلال بحثنا هذا الإجابة على بعض التساؤلات التي اتخذناها معالم نسير على إثرها، نذكر منها:

- ما المقصود بالصعلكة والصعاليك؟
- ما هي مميزات شعر الشنفرى وخصائصه؟
- ما هي تمظهرات الاغتراب في "لامية العرب" للشنفرى؟

انطلاقا من هذه التساؤلات، وسمنا بحثنا بـــ: الاغتراب في شعر الصعاليك، لامية الشنفرى أنموذجا.

وقد قسمنا بحثنا هذا إلى مدخل عنوناه بـــ: الشنفرى..الصعلوك الشاعر، تناولنا فيه ماهية الصعلكة لغة واصطلاحا، لنعرج على نشأتها وأسبابها، ثم ذكر مصادر شعر الصعاليك، لنتحدث بعدها عن الشاعر الشنفرى: سيرته الحياتية ورصيده الشعري.

أما الفصل الأول فعنوناه بـــ: الاغتراب .. تحديد المصطلح، حددنا فيه مفهوم الاغتراب لغة و اصطلاحا في الفكر الغربي و الفكر العربي، ثم حضوره في العلوم (علم النفس، علم الاجتماع، علوم الدين)، لنتناول بعدها موضوعات(الاغتراب الذاتي والاغتراب الموضوعاتي)، ثم التنقيب عن جذوره في الشعر العربي القديم ، لنختمه بتمظهراته عند الشعراء الصعاليك.

وأما الفصل الثاني فكان تطبيقيا، حاولنا من خلاله التقديم للقصيدة المشهورة المغمورة "لامية العرب" للصعلوك الشاعر الشنفرى وبعدها محاولتنا تجلية ما تتضمنه من صور الاغتراب وأشكاله.

وأنهينا بحثنا بخاتمة ذكرنا فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال مسارنا البحثي.

توسلنا في بحثنا هذا الإجراء الوصفي التحليلي تماشيا مع متطلبات مقتضى الدراسة، وذلك من خلال تحليلنا لما جاء في "لامية العرب" للشنفرى، ومحاولة كشفنا لمواطن الاغتراب فيها.

اعتمدنا في بحثنا هذا على مجموعة من الكتب ، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

* الشنفرى، لامية العرب، شرح ودراسة عبد الحليم حفنى، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1429هـ/2008م.

* السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق، مكتبة المتنبي، د.ط، د.ت.

* علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، ط1، 1412هـ/1991م.

* يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، ط4، د.ت.

* حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006م.

* لزهر مساعدية، نظرية الاغتراب من المنظورين العربي والغربي، دار الخلدونية، الجزائر، د.ط، 2013م.

وقد اعترضتنا في بحثنا هذا بعض العراقيل –حالنا في ذلك حال كل باحث–، فعملنا جاهدين على تخطيها –ولله الفضل والمِنَّةُ في ذلك–.

حسبنا من عملنا هذا أننا قد اجتهدنا، فما كان من صواب فمن الله عزّ وجلّ وحده، وما كان غير ذلك فمن أنفسنا ومن الشيطان.

نتوجه في الختام بجزيل الشكر –بعد الله عز وجل– إلى أستاذنا المشرف

الدكتور آية الله عاشوري.

تمت بعون الله يوم: 2019/06/26م

سولاف سعادي و*وليدة وامري*

1. الصعلكة:

1.1 لغة:

جاء في "الصحاح" ما نصه: «(صعلك) الصُعْلوكُ: الفقيرُ. وصَعاليكُ العرب: ذؤبانها. وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه. والتصعلك: الفقر. قال الشاعر:

غَنينا زماناً بالتَصَعْلُكِ والغِنى.»[1]

أما في "لسان االعرب": «صعلك: الصُّعْلُوك: الْفَقِيرُ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ، زَادَ الأَزهري: وَلَا اعْتِمَادَ. وَقَدْ تَصَعْلَكَ الرجل إِذا كَانَ كَذَلِكَ؛ قَالَ حَاتِمُ طيِء:

غَنِينَا زَماناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنـى ... فكُلًّا سَقَانَاهُ، بكَأسَيْهما الدهـــــرُ

فَمَا زَادَنَا بَغْياً عَلَى ذِي قرابـةٍ ... غِنانا، ولَا أَزْرَى بأَحْسابنا الفَقْرُ

أَي عِشنا زَمَانًا. وتَصَعْلَكت الإِبل: خَرَجَتْ أَوبارها وَانْجَرَدَتْ وطَرحتها. وَرَجُلٌ مُصَعْلَكُ الرَّأْسِ: مُدَوَّرُهُ. وَرَجُلٌ مُصَعْلَك الرَّأْسِ: صَغِيرُهُ؛ وأَنشد:

يُخَيِّلُ فِي المَرْعَى لهنَّ بِشَخْصِهِ ... مُصَعْلَكُ أَعلى قُلَّة الرأسِ نِقْنِـقُ

... والتَّصَعْلُكُ: الْفَقْرُ. وصَعاليكُ الْعَرَبِ: ذُؤبانُها. وَكَانَ عُرْوة بْنُ الوَرْد يُسَمَّى: عُرْوَةُ الصَّعَالِيكِ لأَنه كَانَ يَجْمَعُ الْفُقَرَاءَ في حظيرة فيَرْزُقُهم مما يَغْنَمُه.»[2]

---

[1] الفارابي (أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، المتوفى: 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج4، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ/1987م، ص1595 وما بعدها.

[2] انظر، ابن منظور (محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين الأنصاري الرويفع ي الإفريقي، المتوفى: 711هـ)، لسان العرب، ج10، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ص455 وما بعدها.

جاء في كتاب " الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي " تعليقا عن زيادة الأزهري:

«ولكن يبدو أن هذا المعنى لا يعبر عن المفهوم اللغوي للكلمة تعبيرا دقيقا كاملا، ولهذا نريد أن نقف وقفة أخرى عند تلك الزيادة التي أضافها الأزهري إلى هذا المعنى اللغوي، وهي قوله "ولا اعتماد"، لنرى ماذا يستفيد المعنى منها؟ وإلى أي مدى تحدد هذه المعنى وتكمله؟ والمعنى اللغوي لهذه العبارات واضح، فاعتمد على الشيء: توكأ أو اتكأ عليه، واعتمد عليه في كذا: اتكل عليه 1. وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها، ويعينه عليها، حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذين يتعاونون على الحياة، ويواجهون مشكلاتها يدا واحدة. أو هو –بعبارة أخرى– الفقير الذي يواجه الحياة وحيدا، وقد جردته من وسائل العيش فيها، وسلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه في مواجهة مشكلاتها. فالمسألة إذن ليست فقرا فحسب، ولكنها فقر يغلق أبواب الحياة في وجه صاحبه، ويسد مسالكها أمامه.»[1]

لم تختلف نظرة الأدباء إلى ضبط المفهوم اللغوي للصعلكة والصعاليك إذ أن جل العلماء حصروا ذلك المفهوم في خانة الفقر و التهميش، كما يقول شوقي ضيف:

«الصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة؛ فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق. ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات: مجموعة من الخلعاء

[1] يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، ط4، د.ت، ص23.

الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحدادية وأبي الطحان القيني. ومجموعة من أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليك بن السلكة وتأبط شرًّا والشَّنْفَرى، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب. ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات؛ غير أنها احترفت الصعلكة احترافًا، وحينئذ قد تكون أفرادًا مثل عروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي.»[1]

مما سبق يمكننا القول إن من أهم الدلالات التي ارتبطت بها مادة (صعلك) هو الفقر.

2.1 اصطلاحا:

الصعاليك: «جمع صعلوك وهو الفقير: ويطلق لفظ الصعاليك –في عالم الأدب– على فئة من الفقراء اتخذوا لأنفسهم طريقة خاصة في حياتهم، فسلكوا سلوكًا له سمات معينة، أهمها: الأنفة والإباء والترفع عن الصغائر والدنايا وحقير الأعمال، معتمدين في حياتهم على القوة والبطش وانتهاز الفرص وخفة الحركة وسرعة الجري والهجوم الخاطف والسلب والنهب والفتك بالأعداء مع الحرص على البر والاهتمام بالمرضى والضعفاء والمحتاجين.»[2]

[1] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت، ص375.

[2] علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، ط1، 1412هـ/1991م، ص438.

2. نشأة الصعلكة:

رغم أن المجتمع العربي في العصر الجاهلي كان قائما على النظام القبلي إلا أن الصعلكة لم تعترف بالأعراف القبلية السائدة آنذاك، بل إن منشأها كان مناهضا للعصبية القبلية لاعتبارات إقصائية تهميشية، ومنه فإن «الظاهرة المهمة التي تلفت النظر في حياة صعاليك العرب الاجتماعية هي فقد الإحساس بالعصبية القبلية التي كانت قوام المجتمع الجاهلي، وتطورها في نفوسهم إلى "عصبية مذهبية". وهي ظاهرة من السهل تعليلها بعدما فهمنا الظروف الاجتماعية التي وجد فيها هؤلاء الصعاليك، فأما الخلعاء والشذاذ فقد تخلت قبائلهم عنهم، وسحبت منهم "الجنسية القبلية"، فكان من الطبيعي أن يفقدوا إيمانهم بكل معاني القبلية، وأن يكفروا بتلك العصبية القبلية التي لم يعد لها قيمة في حياتهم، بل قد ينقلبون انقلابا تاما فتصبح صلتهم بقبائلهم صلة عداوة، فيوجهون غزواتهم إليها، كما فعل قيس بن الحدادية لما خلعته قبيلته، فجمع لهم "شذاذا من العرب، وفتاكا من قومه، وأغار عليهم بهم"، فنحن هنا أمام حالة شاذة في المجتمع الجاهلي، يغير فيها بعض القبيلة على بعضها. وأما الأغربة فقد أدركوا أن قبائلهم لا تكاد تعترف بهم، بل تكاد تنكر صلتها بهم، فلم يكن هناك إذن ما يوجب حرصهم على تلك العصبية القبلية لأنها مرفوضة من جانب القبيلة.»[1]

[1] يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص117.

3. أسباب الصعلكة:

يرجع نشوء هذه ظاهرة الصعلكة إلى أسباب عدة، فقد «كان الصعاليك أول ثورة واقعية متمردة في الشعر العربي، وقد اتخذ الصعلوك الإغارة والغزو شعارًا له، غير أن هذا الشعار قد اتخذ وجهين في التطبيق، فمنهم من طبقه بهدف التغلب على واقع اقتصادي قاسٍ ساد المجتمع، ومنهم من طبَّقه بقصد السلب والنهب، والصعاليك يشتركون في دوافهم: الفقر والإحساس بالظلم وفقدان المساواة والحرية، وإن اختلفوا في الوسائل، ويتحدون في نتائج تلك الدوافع وهو رفع الظلم والانتقام من الأثرياء والمستعبدين, ويبدو أنهم أرادوا أن يشذوا عن ذلك الواقع ما داموا يرفضونه، فأحدثوا أول صدع فني قوي الأثر تجلى في ملامح شعرهم الخاصة، واتسمت قصائدهم بالقصر, وتتناول موقفًا واحدًا، فاتسمت بالوحدة الموضوعية، وجاء شعرًا واقعيًّا التزم أصحاب به.»[1]

وجد الصعاليك أنفسهم أمام حتمية القوة بغية العيش الكريم، في حين أنهم لو استسلموا لواقعهم لرضوا بالذل والهوان، «وينظر هؤلاء الفقراء الجياع، المحتقرون من مجتمعهم، المنبوذون من إخوانهم في الإنسانية، إلى الحياة ليشقوا لهم طريقا في زحمتها، وقد جردوا من كل وسائلها المشروعة، فلا يجدون أمامهم إلا أمرين: إما أن يقبلوا هذه الحياة الذليلة المهينة التي يحيونها على هامش المجتمع، في أطرافه البعيدة، خلف أديار البيوت، يخدمون الأغنياء، أو ينتظرون فضل ثرائهم، أو يستجدونهم في ذلة واستكانة،

[1] عفيف عبد الرحمن، الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديما وحديثا، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، 1987م، ص230.

وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة أبية، يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم، وينتزعون لقمة العيش من أيدي من حرموهم منها، دون أن يبالوا في سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة، فالحق للقوة، والغاية تبرر الوسيلة.»[1]

4. مصادر شعر الصعاليك:

لعل من أهم مصادر شعر الصعاليك والتي يعتمد أصحابها في تكوين مادتهم اللغوية والشعرية نجد:

«المصدر الأول من مصادر شعر الصعاليك هو قبائلهم نفسها. وقد رأينا أن الصعاليك الخلعاء الذين تبرأت منهم قبائلهم، وطردتهم من حماها، قد استجاروا ببعض القبائل أو ببعض ساداتها، إما استجارة دائمة وإما استجارة مؤقتة. ومن الطبيعي أن يتحدث شعراء هذه الطائفة من الصعاليك الشذاذ عن هذا الجوار في شعرهم، فيمدحوا من أجاروهم، ويثنوا عليهم بما يرونه ردا لذلك الدين الذي طوقت به أعناقهم. ومن الطبيعي أيضا أن يعرضوا لقبائلهم التي خلعتهم، فيكيلوا لها الهجاء، ويخصوا بالذات أولئك الذين كانوا سببا في خلعهم، ومن الطبيعي أن تحرص هذه القبائل التي أجارتهم، هؤلاء السادة الذين أنزلوهم في حماهم، على هذا الشعر حرصا شديدا، وأن يعملوا على إذاعته بين العرب؛ لأنه تسجيل لبعض مفاخرهم، وإشادة ببعض أمجادهم، وليس ما يمنع من أن تذيع هذه القبائل ما قاله هؤلاء الصعاليك في قبائلهم التي خلعتهم؛ لأنه فرصة للنيل منها.

[1] يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص33.

وإذن فالمصدر الثاني من مصادر شعر الصعاليك هي تلك القبائل التي استجار بها الخلعاء منهم.

والمصدر الثالث من مصادر شعر الصعاليك هم الصعاليك أنفسهم. وأظن أنه ليست هناك غرابة في أن يروي الصعاليك شعر شعرائهم، ويتغنوا به، ويرددوه في كل مناسبة؛ لأنه صورة من حياتهم، وصدى لما يدور في نفوسهم. ومن الطبيعي أن يعمل هؤلاء الصعاليك على أن يذيعوا هذا الشعر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا؛ لأنه تعبير عن مذهبهم في الحياة، وتعليل لذلك الأسلوب الذي سلكوه في حياتهم، لعلهم بهذا يضمون إليه أنصارا جددا، أو يقنعون مجتمعهم بأنهم على حق في حركتهم. وساعدهم على هذا ما كان يجده هذا الشعر من إعجاب في الأوساط الشعبية التي كانت تفتن بهذا اللون من الشعر، بما فيه من غرابة، وما فيه من بطولة، ولأنه تعبير عن أشياء لعلهم أكثر من يحسونها ويشعرون بها. ولعل شعر عروة بن الورد وصل إلينا أكثره عن طريق هذا المصدر؛ لأن عروة كان يمثل شخصية الزعيم الشعبي صاحب المذهب الذي يحرص على أن يضم إليه أكبر عدد ممكن من الأنصار، ولعل هذا هو السبب في أن شعر عروة هو أكبر مجموعة من شعر الصعاليك وصلت إلينا.»[1]

[1] المرجع السابق، ص157 وما بعدها.

1. الشنفرى:

1.1 سيرته الحياتية:

فصل شوقي ضيف في الحديث عن الشنفرى في قوله: «أما الشنفرى، فكان من عشيرة الإواس بن الحجر الأزدية اليمنية، فهو قحطاني النسب، ويدل اسمه –ومعناه الغليظ الشفاه– أن دماء حبشية كانت تجري فيه من قبل أمه؛ فهي أمة حبشية، وقد ورث عنها سوادها؛ ولذلك عد في أغربة العرب.

ولا نراه ينشأ في قبيلة الأزد، إنما ينشأ في قبيلة فَهْم، ويضطرب الرواة في سبب نزوله مع أمه وأخ له بها، وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك أن قبيلته قتلت أباه، فتحولت أمه عنها إلى بني فهم، ومما يرجح ذلك أننا نجده يخص بغزواته بن سلامان الأزديين معلنًا في أشعاره أنه يقتص لنفسه منهم.

ويقال إن الذي روضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرًّا؛ فكان يغير معه، حتى صار لا يُقام لسبيله. وما زال يغير على الأزد، وينكل بها، حتى قتل، فيما يقص الرواة، تسعة وتسعين، انتقامًا لأبيه، وأخيرًا يرصدون له كمينًا؛ فيقع فيه، ويمثلون به تمثيلًا فظيعًا، يقطعون فيه جسده تقطيعًا، ويرمون به للسباع، ويقال: إن رجلًا عثر بجمجمته، فعقرته، فمات. وبذلك يبلغ قتلاه من الأزد مائة. وخيوط الأسطورة واضحة في مقتل

الرجل المكمل للمائة، وتلعب هذه الخيوط في أخباره جميعًا كما تلعب في أخبار تأبط شرًّا رفيقه.»[1]

أما السيد عمارة فيقول: «قد اصطرع قوم الشنفرى مع بني شبابة إحدى قبائل فهم بن عدوان وقد هزموا، وقتل والد الشنفرى في هذه المعركة، وأخذ هو أسيرًا وظل فيهم، حتى زهدوا فيه، واستبدلوه بأسير منهم وقع في أيدي أعدائهم بني سلامان، فكان الشنفرى في بني سلامان مكان الفهمي وعاش في بني سلامان كأنه واحد منهم وعلى عينيه غشاوة عن حقيقة وضعه حتى ظن أنه ابن الرجل الذي تبناه فكن يعامله على أساس أنه والده وينياديه ياأبي، حتى حدث ما حدث من الأحداث التي جعلته ينقم على بني سلامان ويعود إلى بني فهم.

وتختلف الروايات في سبب نقمته عليهم، وتذكر بعضها أن الرجل السلامي الذي كان يعيش عنده، الشنفرى ويرعى غنمه وإبله كانت له فتاة تسمى قعسوس وبينما هما يرعيان –وأبوها غائب– طلب منها الشنفرى أن تعينه في غسل رأسه فأنفت أن يستخدمها، ولطمته لطمة مدوية على خديه، طار لها لبه وفقد صوابه، واستشاط منها غضبا، وانتظر حتى حضر أبوها، وذهب له مغاضبا وسأله من أنا؟ فقال: من الأواس بن الحجر، فقال: أما إني لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استبعدتموني.

[1] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص379 وما بعدها.

ثم قال للجارية التي لطمته وقالت له لست بأخي:

ألا ليت شعري والتلهف ضلـــــــة بما ضربت كف الفتاة هجينهـــا

ولو علمت قعسوس أنساب والـــدي ووالدها ظلت تقاصر دونهـــــا

أنا ابن خيار الحجر بيتًا ومنصبًـــا وأما ابنة الأحرار لوتعرفينهـــا

وبعض الروايات تذكر أنه أحبها، وتمنى أن يتزوجها، وحاول أن يقبلها حين خلا بها، فصكت وجهه، ثم سعت إلى أبيها فأخبرته فخرج إليه ليقتله فوجده ينشد أبياتًا يأسف فيها على أن هذه الفتاة لا تعرف نسبه، وبعضها تذكر أنه تزوجها فعلًا، وأن بني سلامان استقبحوا أن يصهر إليهم رجل كالشنفرى، وأن أبا قعسوس خشي أن يقتله أهله أن أصهر إليه، فأقسم له الشنفرى إن قتلوك لأقتلن منهم مائة رجل بِكَ فأنكحه ابنته، وبعد أن تزوجها الشنفرى قتلت بنو سلامان أباها، فأخذ الشنفرى يوفي بوعده للرجل فيغزو بني سلامان وقتلهم ... وتذكر بعض الروايات أنه قتل منهم تسعة وتسعين رجلًا، وأنهم حاولوا أكثر من مرة أن يتمكنوا منه ولكنه كان يفر منهم وأخيرًا تمكنوا من قتله بعد أن أذاقوه صنوف العذاب، فيمر رجل منهم بجمجمته فيضربها فتعقره فيموت، وتتم به المائة الذين كانت حلفة الشنفرى عليهم.»[1]

[1] انظر، السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق، مكتبة المتنبي، د.ط، د.ت، ص.ص3.5.

2.1 شعر الشنفرى:

إن دارس شعر الشنفرى يكاد يجزم بأنه تصوير للحياة الصعلكية بما تكتنفه من صور تمرد ونقمة على الواقع المزري، يقول يوسف خليف: «ويوشك ما وصل إلينا من شعر الشنفرى أن يدور كله داخل دائرة التصعلك، ونقول يوشك لأن تائيته المفضلية تبدأ بمقدمة طويلة من النسيب التقليدي، يرسم فيها صورة رائعة ممتازة لصاحبته الحيية الوفية الجميلة.

ومما يؤسف له أن مجموعة شعر الشنفرى التي بين أيدينا –برغم أنها مجموعة في ديوان– قليلة، فإذا أخرجنا منها "لامية العرب" التي رجحنا أنها ليست له، والتائية المفضلية، فإن ما يتبقى منها طائفة من المقطوعات والقصائد القصيرة.

وأخص ما يميز أسلوب الشنفرى الفني تلك الخشونة اللفظية التي تمثل اللغة البدوية الجاهلية أصدق تمثيل، ثم تلك القوة التعبيرية التي تجعل أسلوبه أسلوبا محكما لا رخاوة فيه، هذا إلى جانب ما يمتاز به من صدق التصوير، والصراحة في النقل عن الحياة.»[1]

يقول شوقي ضيف: «وللشنفرى ديوان شعر صغير طبع في لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائف الأدبية، ومما اشتهر له لامية العرب، وهي مما نُحل عليه؛ فقد نص الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر، وقد أحكم صناعتها وساق فيها اسم موضع في جنوبي اليمن هو إحاظة ليدل على أن قائلها كان يتجول في هذه الأنحاء، وحتى يكون ذلك أدعى إلى تصديقها والثقة بها.

[1] يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص338.

وهي تصور تصويرًا حيًّا حياة الصعلوك الجاهلي وروحه البدوية الوحشية. وبجانب هذه القصيدة المنتحلة نجد له قصيدته التائية الطويلة التي رواها المفضل في مفضلياته، ثم مجموعة من المقطوعات.

ويبدو في أشعاره على شاكلة تأبط شرًّا هزيلًا نحيلًا يلبس ثيابًا بالية ونعالًا ممزقة. ولو لم يصلنا إلا تائيته لكان ذلك كافيًا في تصور حياته ومغامراته.»[1]

[1] شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص380.

1. مفهوم الاغتراب:

1.1 لغة:

يقول الفارابي: «[غرب] الغُربة: الاغتراب، تقول منه: تغرب، واغترب، بمعنى، فهو غريب وغرب أيضا بضم الغين والراء. وقال:

وما كان غض الطرف منا سجية ولكننا في مذحج غربـــــــان

والجمع الغرباء. والغرباء أيضاً: الأباعد. واغترب فلانٌ، إذا تزوَّج إلى غير أقاربه. وفي الحديث "اغترِبوا لا تُضْووا". والمُغَرِّب : الذي يأخذ في ناحية المَغْرِب. وقال قيس بن الملوَّح:

وأصبحت من لَيْلى الغداةَ كناظرٍ مع الصُبحِ في أعقاب نجمٍ مُغَرّبِ

ويقال أيضاً: "هل جاءكم مُغرِّبة خَبَرٍ"، يعني الخبر الذي طرأ عليهم من بلدٍ سوى بلدهم. وشأو مغرب ومغرب أيضا بفتح الراء، أي بعيد. والتَّغْريب: النفي عن البلد.»[1]

أما ابن منظور فيقول: «والاغْتِرابُ والتغرُّب كَذَلِكَ؛ تَقُولُ مِنْهُ: تَغَرَّبَ، واغْتَرَبَ، وَقَدْ غَرَّبه الدهرُ. وَرَجُلٌ غُرُب، بِضَمِّ الْغَيْنِ وَالرَّاءِ، وغريبٌ: بَعِيدٌ عَنْ وَطَنِه؛ الْجَمْعُ غُرَباء، والأُنثى غَريبة؛ قَالَ:

إِذا كَوْكَبُ الخَرْقاءِ لاحَ بسُحْرةٍ سُهَيْلٌ، أَذاعَتْ غَزْلَها فِي الغَرائبِ

أَي فَرَّقَتْه بَيْنَهُنَّ؛ وَذَلِكَ أَن أَكثر مَنْ يَغْزِل بالأُجرة، إِنما هِيَ غريبةٌ. وَفِي الْحَدِيثِ:

[1] الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج1، ص191.

أَن النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سُئِلَ عَنِ الغُرباء، فَقَالَ: "الَّذِينَ يُحْيُونَ مَا أَماتَ الناسُ مِنْ سُنَّتِي".

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: نّ الإِسلامَ بَدأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدأَ، فطوبَى للغُرباءِ؛ أَي إِنه كَانَ فِي أَوّلِ أَمْرِه كالغريبِ الوحيدِ الَّذِي لَا أَهل لَهُ عِنْدَهُ، لِقِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ؛ وسيعودُ غَرِيبًا كَمَا كَانَ أَي يَقِلُّ الْمُسْلِمُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَيَصِيرُونَ كالغُرباء، فطُوبى للغُرَبَاء؛ أَي الجنةُ لأُولئك الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي أَوّل الإِسلام، وَيَكُونُونَ فِي آخِرِهِ؛ وإِنما خَصَّهم بِهَا لصبْرهم عَلَى أَذى الْكُفَّارِ أَوَّلًا وَآخِرًا، ولُزومهم دينَ الإِسلام. وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: أُمَّتِي كَالْمَطَرِ، لَا يُدْرَى أَوَّلُها خَيْرٌ أَو آخِرُها.

قَالَ: وَلَيْسَ شيءٌ مِنَ هَذِهِ الأَحاديث مُخَالِفًا لِلْآخَرِ، وإِنما أَراد أَن أَهلَ الإِسلام حِينَ بَدأَ كَانُوا قَلِيلًا، وَهُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَقِلُّون إِلَّا أَنهم خيارٌ ...

وَرَجُلٌ غريبٌ: لَيْسَ مِنَ الْقَوْمِ؛ ورجلٌ غريبٌ وغُرُبٌ أَيضاً، بِضَمِّ الْغَيْنِ والراءِ، وَتَثْنِيَتُهُ غُرُبانِ؛ قَالَ طَهْمانُ بْنُ عَمْرو الكِلابيّ:

وإِنيَ والعَبْسِيَّ، فِي أَرضِ مَذْحِجٍ، غَريبانِ، شَتَّى الدارِ، مُخْتَلِفـانِ

وَمَا كَانَ غَضُّ الطَّرْفِ منا سَجِيَّةً، ولكننا فِي مَذْحِجٍ غُرُبـــــانِ

والغُرباءُ: الأَباعِدُ. أَبو عَمْرٍو: رَجُلٌ غَرِيبٌ وغَرِبيٌّ وشَصِيبٌ وطارِيٌّ وإِتاويٌّ، بِمَعْنًى.»[1]

[1] انظر، ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص639 وما بعدها.

2.1 اصطلاحا:

1.2.1 في الفكر الغربي:

1.1.2.1 عند "هيجل":

يقول عبد اللطيف خليفة: «إن ظاهرة الاغتراب ظاهرة موغلة في قدم الإنسان في الوجود، لكنها لم تكن مدروسة ، ولم يكن له مصطلح خاص به حتى الفترة الأخيرة. أين أشار إليه الفيلسوف الألماني "هيجل" ، لتتوالى الدراسات بعد ذلك حول هذه الظاهرة عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء النفس، فحاولوا إيضاح الظاهرة أكثر ، ومعرفة أسبابها، أبعادها ومظاهرها ، وخلق علاج لها. فنظرا لكون "هيجل" أول من تطرق لمصطلح الاغتراب وأصله وأكد عليه ما جعله أبو الاغتراب.»[1]

ظهر الاغتراب كمفهوم فلسفي وكمصطلح أول عند هيجل ، وقد عرفه «بأنه حالة اللاقدرة أو العجز، الحالة التي يعانيها الإنسان عندما يفقد سيطرته على مخلوقاته ومنتجاته وممتلكاته، فتوظف لصالح غيره بدل أن يسطو هو عليها لصالحه الخاص، وبذلك يفقد الفرد القدرة على تقرير مصيره.»[2]

يعتبر هيجل مفهوم الاغتراب ذو طبيعة مزدوجة، والذي «يتمثل في الفردية والكلية ويقصد بالأخيرة تلك البنية الاجتماعية التي يبدعها عقل الإنسان، وبالتالي يعتبرها شيئا

---

[1] عبد اللطيف محمد خليفة، الاغتراب وأنواعه، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 2005م، ص60.

[2] حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006م، ص37.

عقليا ينظر إليها كموضع لعقله »[1]، إذ ربط الفردية بالانفصال والانقسام وربط الكلية بالتخارج والتموضع، هذا ما تطرق إليه "فيخته" في شرحه مصطلح التخارج Entausserung «بمعنى التسليم أو التجرد المرتبط بصورة وثيقة بمصطلحي الغربة والاغتراب عند أصحاب نظرية العقد الاجتماعي.»[2]

لقد ميز هيجل بين أشكال عديدة للاغتراب من أهمها:

1.1.1.2.1 فقدان الوحدة مع البنية الاجتماعية:

يرى هيجل أن وعي الفرد بذاته ظاهرة نسبية وحديثة وغير شاملة ، ومن طبيعة الإنسان أنه يفكر في نفسه – هذا يحدث تلقائيا – دون وعي الفرد بذلك، وهذا لكون علاقته بالبنية الاجتماعية هي علاقة وحدة كاملة ، «ولكن أحيانا قد تحدث صراعات في البنية الاجتماعية، ما يجعل الفرد يرجع إلى ذاته ، منعزلا عن مجتمعه وبعيدا ، عن الوحدة والكلية، فيحدث تنافر وعدم التطابق بين الفرد والبنية الاجتماعية.»[3]

2.1.1.2.1 الاغتراب عن الذات (من خلال طبيعة الإنسان الجوهرية):

وذلك بانسلاخ الفرد عن البنية الاجتماعية، فإدراك الفرد أن البنية الاجتماعية شيء آخر بالنسبة إليه يجعله يحس بالتنافر بين ذاته.

---

[1] لزهر مساعدية، نظرية الاغتراب من المنظورين العربي والغربي، دار الخلدونية، الجزائر، د.ط، 2013م، ص25.

[2] المرجع نفسه، ص21.

[3] المرجع نفسه، ص25.

3.1.1.2.1 الاغتراب عن الوجود المستقل:

معناه أن يفقد استقلالية الذات ، والاعتماد على الآخرين للحصول على الوسائل التي من خلالها يعتمد في تأكيد استقلاله وتنمية فرديته، فنجد أغلبية الناس يرغبون في امتلاك الثروة التي تحقق لهم الاستقلالية والفردية ، لكن في مقابل ذلك نجد أن هذه الثروة هي السبب الأول في اغترابه وفقدان الوجود المستقل.

2.1.2.1 الاغتراب عند ماركس (Marx):

يرى ماركس أن العمل والحياة المنتجة هي التي تميز الإنسان كنوع في الطبيعة لذلك نجد عند ماركس أربعة أنماط هامة للاغتراب وهي : الاغتراب عن ناتج العمل، الاغتراب عن العمل ذاته، الاغتراب عن الآخرين، الاغتراب عن النوع الإنساني.

يتمثل الناتج الإنساني في ناتج عمل الفرد، «الذي يصبح مغتربا عند ارتباط العامل بناتج عمله كموضوع غريب عنه، يعود هذا الى وجود الناتج بصورة مستقلة خارج سيطرة المنتج، ولا يتصرف فيه كما يريد، فلا يكون ناتجه وإنما مجرد وسيلة لانتهاجه.»[1]

[1] المرجع السابق، ص28.

«أما في اغتراب الانسان عن العمل ذاته، يرى ماركس أن العامل يغترب في هذه الحالة ليس فقط في علاقته بإنتاجه، بل في نوعية علاقته بعمله بالذات فهو لا يختبر في عمله أي اكتفاء ذاتي، وأي إبداع أو نمو.»[1]

إن اغتراب العمل حسب نظر ماركس مرتبط بالعامل ونشاطه وانه شيء غريب عنه، وذلك بعدم الشعور بالألفة وتجنبه في عمله، كونه تحت سيطرة إنسان آخر، وكون العمل تعبير عن شخصية العامل، بمعنى أن العمل في المجتمع البرجوازي ينتقل من كونه مجالا للإنجاز إلى عمل قهري، «ففي المجتمع الرأسمالي أصبح الإنسان وسيلة بالنسبة للآخر، والعالم الرأسمالي تسوده الأنانية والحروب بين الأفراد، الذين يهتمون فقط بمصالحهم الخاصة ودافعهم الوحيد في إقامة علاقة مع الآخرين هو الحاجة والمصلحة الذاتية، وبهذا فالفرد في المجتمع الرأسمالي يرى الآخرين خصوما وأعداء له »[2]، ومنه الاغتراب عن الآخرين يتجسد من خلال منطق الأنانية والتنافس الذي يحكم العلاقات بين الأفراد في ظل نظام الرأسمالية.

وفي نمط الاغتراب عن النوع الإنساني أو ما يمكن ان نسميه اغترابا عن الطبيعة البشرية الأساسية (اغتراب عن الذات)، «فكما سبق وأشرنا يجعل ماركس العمل وناتج

[1] حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، ص40.

[2] لزهر لمساعدية، نظرية الاغتراب بين المنظورين العربي والغربي، ص29.

العمل حياة للإنسان، وتعبيرا منه على ذاته، وبذلك فاغتراب العمل واغتراب الناتج يؤديان بالضرورة إلى اغتراب الإنسان عن ذاته.»[1]

يرى ماركس أن عمل الإنسان وإنتاجه متعلق بحياته ، فإذا اغترب عنه فـإن ذاته تغرب عنه كذلك ، ويرى أيضا بـأن ذات الإنسان تغترب إذا لم تفصح حياته عن سمات الحياة الإنسانية، والتي تتمثل في الفردية والاجتماعية والتمتع بالحساسية المهذبة.

ومنه وما تطرق إليه ماركس في تحليله لقضية الاغتراب، نستطيع القول بأنه على خلاف مع هيجل، إذ يرى أن الاغتراب حالة تلازم شكلا محددا من أشكال المجتمعات، إنه المجتمع الرأسمالي، وفي رأيه أنه يمكن تجاوز حالة الاغتراب تلك من خلال تغيير هذا النظام، واستبداله بالنظام الشيوعي باعتبارها الحل الوحيد لتجاوز الاغتراب.

3.1.2.1 مفهوم الاغتراب عند الوجوديين:

يمكن القول بأن موضوع الاغتراب ذو ارتباط وثيق بالوجودية، ذلك أنها تهتم بالحياة وبالوجود الواقعي الملموس للفرد، فنرى أن الوجود يسبق الماهية، وأن الإنسان هو خالق نفسه وصانعها، على ضوء الاختيار الحر، فهو الذي يقرر مصيره وسلوكه، وانطلاقا من اختياره هذا والمسؤولية هذه التي يجد الوجودي نفسه متصارعا معها، ويدخل في دوامة من الوحدة والقلق والغربة عن العالم.

[1] المرجع السابق، ص30.

لم يستخدم الفيلسوف كير كيجورد مصطلح الاغتراب إلا أنه تعرض ل قضية الاغتراب من خلال نقده لحشد الجماهير الذي ولد فقدان الحرية والتفرد والضياع يقول:« يغرز واحدنا أصبعه في التراب ليعرف من خلال رائحته في أي موقع هو »[1]، وحول رأيه هذا دارت في ذهنه العديد من التساؤلات، والتي كشفت لنا أن الإنسان رغم مسايرته للحياة واعتماره إلا انه يبقى ضائع ومفقود الحرية وبالأحرى مغترب.

حسب نظر كي ركيجورد أن الحشد هو السبب في ضياع الإنسان في المجتمع وانفصاله عن ذاته ويجعله غير قادر على الانسجام مع ذاته ولا مع العالم الذي حوله.

أما إريك فروم ينظر لقضية الاغتراب نظرة سلبية، فهو يرى أن الإنسان المغترب إنسان مريض على الرغم من أنه قد يبدو سويا، «إن مفهوم الاغتراب عن الذات خاصة لا ينفصل عن مناقشة فروم للاغتراب في المجتمع المعاصر، فأحيانا يكون هذا المفهوم سببا أو نتيجة لاغترابات أخرى، ففي اغتراب الإنسان عن الآخرين ينطلق فروم من حقيقة مفادها أن الإنسان المغترب عن الآخرين هو حتما مغترب عن ذاته.»[2]

يتضح لنا من خلال هذا أن الإنسان يشعر بالغربة وهو بين الجماهير من الناس، لكن عند تمعننا في هذا الأمر يتبين لنا أن الحشد نفسه يهبط بقيمة الفرد.

[1] حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، ص46.

[2] لزهر لمساعدية، نظرية الاغتراب بين المنظورين العربي والغربي، ص38.

2.2.1 في الفكر العربي:

تعتبر قضية الاغتراب من بين القضايا التي عالجها الشعر العربي منذ القدم بحيث تعود جذوره إلى الشعر الجاهلي ، وهذا ما نجده في المقدمات الطللية التي بدورها تعبير عن الإحساس الفاجع بمفارقة الديار وذكرى الحبيبة ، ومن بين هؤلاء الشعراء نذك ر: امرئ القيس وقصته مع أبـي حين أنكر عليه قول الشع ر، كما عانى طرفة بن العبد من الاغتراب بخروجه عن مجتمعه وتمرده على قيم القبيلة ، وعرف عنترة العبسي الاغتراب بسبب لونه (السواد).

يرى أبو حيان التوحيدي أن: «مفهوم الاغتراب حظي باهتمام العلماء والفقهاء العرب المسلمين، والذي استمد آراءه من تجربته الحياتية، أين أمضاها بائسا، فقيرا منبوذا مغتربا.»[1]

بالإضافة إلى آراء التوحيدي نجد الجاحظ أيضا تحدث في موضوع الاغتراب، مما قاله هذا التشبيه الرائع للغريب عن وطنه: «الغريب النائي عن بلده، المنتحي عن أهله، كالثور الناد عن وطنه الذي هو لكل سبع قنيصة، ولكل رام دريئة ...»[2]

فالجاحظ هنا يرى أن الغريب عن وطنه يكون فريسة لكل المصائب والنكبات.

[1] المرجع السابق، ص51.

[2] المرجع نفسه، ص57.

كما عرف ابن باجة الاغتراب بمختلف ضروبه حيث «اقتفى أثر فيلسوف المشرق الفارابي، فعاش مغتربا عن الناس فأحب العزلة ، لأنه ذاق ذرعا بالحياة ، حيث كانت غربته روحية، فلسفية وعقلية، واغترابه هذا كان بالنسبة إليه مصدر إمتاع ومؤانسة.»[1]

كان اعتزال الناس والمجتمع هو سبيل المرء الوحيد للعيش الأمثل ووسيلته حتى يحيا هنيا.

2. الاغتراب في العلوم:

1.2 علم النفس:

ناول نقطة تواجه الباحث عن مفهوم الاغتراب في علم النفس هو تعدد مفاهيمه واختلافها من باحث لآخر ولكننا توقفنا عند أهم تعاريفها المتقاربة ، بحيث نجد بعض الباحثين يعرف الاغتراب على أنه: «شعور بالوحدة أو الغربة، وانعدام علاقات المحبة أو الصداقة مع الآخرين من الناس ، وهو حالة كون الأشخاص والمواقف المألوفة تبدوا غريبة»[2] أي أن أساس نمو المشاعر المغتربة وتفاقمها لدى الأشخاص نابع أصلا نتيجة عدم قدرتهم على خلق علاقات مع الغير بسبب تصورهم للأخ ر، الاغتراب هنا وصف لحال الإنسان الواقع تحت هيمنة وضغوطات نفسية ما أدى إلى سلبه ذاته وماهيته.

[1] عادل الألوسي، العبقرية والاغتراب، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 2003م، ص59.

[2] كمال الدسوقي، ذخيرة علوم النفس، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 1988م، ص77.

يعد سيغموند فرويد من أبرز علماء النفس الذين ناقشوا هذه الظاهرة باستخدام مصطلحات علمية دقيقة: الأنا، والانا الأعلى، والهو.

فهو يرى أن الاغتراب «ينشأ أساسا إذا ما فشل الأنا في أراء وظيفته المتمثلة وتكمن ضريبة هذا الفشل في الشعور بان أجزاء من بدننا ، بل وعناصر من حياتنا النفسية ، من إدراك وأفكار ومشاعر قد تبدوا لنا في بعض الأحوال وكأنها غريبة وأجنبية ولا تؤلف جزءا من الأنا.»[1]

وذلك جراء الكبت والقمع الذي يوجه الأنا لبعض الدوافع الغريزية التي يطمح الهو إلى إشباعها، وتكون غير متناسبة مع العالم الخارجي ، مما يؤدي إلى الألم والإحباط، وهذا ما يولد الانفصال والبعد، حيث تصبح الأنا خاضعة للهو، وهذا هو الاغتراب حسب المفاهيم الفرويدية.

وصفوة القول أن الاغتراب في علم النفس يتمثل في« حالة شعور الإنسان بفقدانه لميزة معنوية من مميزاته الحرية والأمن ، يتبعها شعور حاد بالقلق والوحشة والضياع والعجز وعدم شعور الفرد بالقيمة والأهمية لنفسه وللأشياء التي يمتلكها والأعمال التي يقوم بها.»[2]

[1] سيغموند فرويد، قلق الحضارة، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت-لبنان، ط2، 1979م، ص8.

[2] محمود رجب، الاغتراب وسيرة المصرطلح، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1976م، ص112 وما بعدها.

2.2 في علم الاجتماع:

يعد الاغتراب من أهم المفاهيم السوسيولوجيا إلا انه لا يزال أقل المفاهيم تعريفا في علم الاجتماع الحديث ، حيث «يقوم مفهوم عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم على فكرة تفكك القيم و المعايير الاجتماعية بحيث لا تتمكن من السيطرة على السلوك الإنساني وضبطه.»[1] ويستعمل مصطلح أنوميا (Anomio) للتعبير عن الاغتراب، فعندما يتساوى كل شيء من حيث الجوهر والقيمة يفقد معناه ، وكنتيجة طبيعية لذلك تظهر مشاعر العبث والقلق واليأس ، ويعبر جرودزن عن الاغتراب بكونه«الحالة التي يشعر فيها الأفراد بالانتماء إلى المجتمع أو الأمة حيث العلاقات الشخصية غير ثابتة وغير مرضية.»[2]

أي أنّ فقدان العلاقات الإيجابية مع الآخرين يؤدي إلى الاغتراب، فقد يكون سبب فقدان هذه العلاقات أو غيابها نابع من الإحساس بالاختلاف عنهم لدرجة تبعث على التوتر في وجود الآخرين بسبب وجهة نظر المرء أو اهتماماته أو ذوقه الشخصي.

4.2 في علوم الدين:

يتضح لنا أنَّ معاني الغربة والاغتراب هي أكثر المفاهيم التصاقا بالديانات، أرضية كانت أم سماوية، لارتباطها بالعجائب والغرائب والمعجزات والكرامات.

[1] بسام خليل فرنجيّ، الاغتراب في أدب حليم بركات، مجلة فصول، المجلد الرابع، العدد الأول، 1983م، ص20.
[2] المرجع نفسه، ص209.

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد هذا المعنى: "بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء".

لقد عاش صحابة النبي صلى الله عليه وسلم معنى الاغتراب المكاني في هجرة الحبشة وفي الهجرة إلى المدينة، تاركين أوطانهم وديارهم وأموالهم، وكل ما يملكون في سبيل الذوذ عن عقيدتهم ونصرة الإسلام، كما عاشوا الاغتراب الزماني وهم يواجهون الواقع الجاهلي المسيطر على العالم من حولهم، وينظرون للعالم من حولهم.

3. موضوعات الاغتراب:

إذا اعتبر مفهوم الاغتراب إشكالية كبيرة واجهت الدارسين في تحديد مفاهيمه وضبط زواياه، وذلك بالنظر إلى الغموض الذي يكتنفه ، فإن أشكاله وأنواعه كانت أكثر غموض وتعقيدا، لأنه ليس هناك شيء سمي بالاغتراب الشامل الذي يجمع سائر الأنواع معا، غير أن هناك أنواع من الاغتراب لا تعد ولا تحصى كانت موجودة منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، وذلك لأنها تشتمل على العديد من أهم الإمكانيات التي يمكن أن تظهر على طرق الدراما المستمرة للحياة والتجربة الإنسانية.

ومن بين أهم هذه الأنواع وأكثرها انتشارا لدى الشعراء ، تنحصر في قسمين الاغتراب الموضوعاتي والاغتراب الذاتي.

1.3 الاغتراب الذاتي:

نقصد بالاغتراب الذاتي تجسد صدى الاغتراب الموضوعي في ذات الشاعر ، وما تأثيره في نفسه من مشاعر وأحاسيس في لا وعيه، وكذلك ردة فعله المتجسدة في أشكال اغترابية أخرى يختارها الشاعر في وعيه تعويضا اغتراب ذاته.

1.1.3 الاغتراب النفسي والروحي:

وينشأ من التناقض بين الإنسان وبين العالم الخارجي ، وبين الواقع والخيال ، بين ما يملكه وما يطمح إل يه، بين عالم الآخرين وعالمه الخاص ، «فيفصل الفرد عن ذاته الإنسانية الحقة أو عن طبيعته الجوهرية، وبهذا المعنى يحمل ذلك التعبير فكرة الفقد الكلي لإنسانية الإنسان.»[1]

فتداخل هذه الأبعاد في هذا المفهوم مما يصعب علينا تخصيص نوع مستقل نطلق عليه الاغتراب النفسي ، لارتباطه بجميع أبعاد الاغتراب الأخرى ، وفي تقييم الدكتور (محمود رجب) للاغتراب النفسي هو: «اضطرابات نفسية وعقلية، وما يستشعر من غربة العالم وفتور وجفاء في علاقته بالآخرين.»[2]

إن تصاعد الاغتراب وتفاقمه على الصعيدين الاجتماعي والسياسي يؤدي إلى الاغتراب الروحي ، إذ يعتبر كغيره من الأنواع الأخرى التي عانى منها الإنسان ،

[1] جديدي زليخة، الاغتراب، ص351.

[2] محمود رجب، الاغتراب سيرة مصطلح، ص35.

والمغترب في ظله يشعر بالانفصال عن الدنيا ومتاعها، فهو كعابر السبيل بها، لا يتوقف عندها وإنما يمر عنها ليصل إلى مكانه وعالمه. وقد عدت الدكتورة (مي يوسف خليف) مظاهر الاغتراب النفسي والروحي في: «مواقف تحكيها لحظات الإحساس بالفقد والحرمان، أو معايشة عالم الضياع، أو الوقوف عند منطقة الاستسلام والانهزام البشري، أو سيطرة روح القلق والاضطراب في نفس الشاعر ، أو الانقسام على الذات أو حيرة إزاء الانفصال عن الآخرين ، أو رفض الانتماء إليهم ، أو استقباح الولاء للنموذج القبلي السائد، أو استهجان القيم ورفض الانصياع لها، أو الإحساس بالكبت والاضطهاد إزاء كثرة التعاليم، أو بغض التسلط من قبل الأخر أو رفض الإستغلال من خلاله ...»[1]

نجد الشعر الذاتي تعلوه سمة من الحزن ، الأسف السوداوية في نظرته للأشياء من حوله، في أغلب الأحيان ينوء بهواجس صاحبه النفسية، ومنها: الوهم، الحلم والهذيان.

ومن خلال هذه الهواجس النفسية ، نجد أن الشاعر يسعى إلى تجسيد عناصر من الطبيعة يجمعها الضياع والحزن والانتكاس وما تعرض له من بطش وسلب ، فهي تقنيات تدل على الاغتراب النفسي للشعر.

[1] يوسف خليف، ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات، ص15 وما بعدها.

2.1.3 الاغتراب العاطفي:

الاغتراب العاطفي في الشعر مرده فقدان الشاعر لمنابع الحنان والعاطفة التي يستمد منها قوته وسعادته ، وهو نتيجة إما لفقدان العائلة أو الأسرة التي تعد سندا معنويا لأي شخص، ولكن أكثر الأسباب الاغتراب العاطفي حدة عند الشعراء مبعثه الحب والحرمان الذي يكابدونه بين الهجر والطويل والوصال القليل ، ولا يخفى علينا دور الحب في اغتراب الذات الشاعرة ، وكثيرا كبت الرغبات والمشاعر الإنسانية في المجتمعات المحافظة سببا في الاغتراب العاطفي لدى كثير من الشعراء ، الذين عبروا عن هذا المنع والحرمان بشتى الطرق، وقد لاحظ (فرويد) أن قهر الغريزة عند الإنسان بواسطة الكبت ، يجعل الرغبات تتمثل في الأحلام، في حين تغيب الظاهرة في سلوك الوعي عند مرضاه.

3.1.3 الاغتراب التعويضي:

وهو ردة فعل الشاعر في وعيه ، ويقابل به ضغط الاغتراب الخارجي المسلط عليه، فيسعى بنفسه لخلق جو أخر وفضاء يهرب إليه ليتجاوز أزمته ويخفف من محنته ، إلا أن هروبه من واقعه وعالمه يشكل اغترابا من نوع أخر. وقد يتخذ عدة أشكال:

1.3.1.3 العودة إلى الماضي:

إن العودة للماضي بمثابة تنفيس للشاعر من ضيق الاغتراب الحاضر، و«تعبير عن حالة الشوق التي يجتاح نفسيته إلى ذلك الزمان الذي ولى إلى غير رجعه ، ولا شك أن للماضي نكهة خاصة عند الإنسان ، ومن أشكاله العودة إلى زمان الطفولة، فعودة المغترب

إلى مراجع الطفولة، هو هرب من الواقع الأليم إلى واقع ماض مفعم بالسعادة والبراءة ، هربا إلى حضن الأم الدافئ.»[1]

2.3.1.3 التمرد:

ما تطرقت إليه سناء حامد زهران في تعريفها للتمرد: «هو شعور الفرد بالرفض والكراهية لكل ما يحيط به مما يدعوه لممارسة العنف ووجود نزعة تدميرية نتيجة إلى خارج الذات في شكل سلوك عدواني ، وأخرى نتيجة إلى داخل الذات عزلة ونكوص وعدوان موجه إلى الذات.»[2]

يختلف رد الشاعر على اغترابه بين النبوغ والعنف ، وكثيرا ما تلجا الشخصيات المؤهلة ذات النوازع الفردية لإظهار اغترابها عن هذا النظام بطريقتين: إما بالتمييز و أخذ فرص الاستحقاق بالقوة كالنبوغ في الشعر أو البطولة والفروسية ، وإما بالتمرد والسلوك العدواني كالصعاليك.

إن أنواع الاغتراب هذه لا يمكن فصلها عن بعضها البعض بصورة مستقلة نظرا لأنها تشكل وحدة من المشاعر التي يعايشها الإنسان وتؤثر ببعضها البعض.

[1] ماجد قاروط، المعذب في الشعر العربي الحديث، إتحاد الكتاب العرب، لبنان، د.ط، 1999م، ص150.
[2] جديدي زليخة، الاغتراب، ص353.

2.3 الاغتراب الموضوعاتي: وتندرج فيه عدة مواضيع التي يجسدها الأديب في دراساته:

1.2.3 الاغتراب الزماني:

وفيه لا يعود الزمان عنصرا محايدا بل يصير مشحونا بدلالات الاغتراب وما تفيضه عليه من أجواء الوحشة والتعجب ، لافتقاده للمثل الخيرية والقيم الإنسانية ، فيصير بذلك الزمان مسؤولا عن المحن التي واجهها الشاعر، كقول المتنبي:

عضنا الدهر بنابـــــــــــه يا ليته ما حل بنا بـــــــــــــه

يعلق الناقد ماجد قاروط على قصيدة عبرت عن تشاؤم من صروف الدهر للشاعر محمد البزم في قوله:

دع الدهر تنموا بالرزايا مصائبه وتمطر أصناف البلايا حسائبه

فما الدهر الا كيوم و ليلـــــة تروح بسعد أو بنحس كواكبـه

فيقول: «فالدهر هو المفتاح و البؤرة التي يدور حولها النص ، وهو مصدر العذاب والشكوى والأنين ، بما يحمله من أحداث قهرية تصيب الشاعر بالكثير من الأذى والضرر، ولا يستطيع بعدها أن يفعل شيئا إزاء صروفه.»[1]

[1] ماجد قاروط، المعذب في الشعر العربي الحديث، ص145.

2.2.3 الاغتراب المكاني:

ويظهر هذا العنصر في أشواق الشاعر لموطنه التي ضاق بها ذرعا، وهموم غربته المكانية التي يبثها في شعره نتيجة هجرته وتركه لوطنه إكراها أو اضطرارا، إذ إن حياة البداوة والمتميزة بعدم استقرارها أجبرته على التغرب والانتقال من مكان إلى مكان أخر، بحثا عن حياة أفضل.

«وفي الغربة تنتابه مشاعر الحنين إلى دياره وأهله وبخاصة إلى المرأة الحبيبة التي تخلت عن المكان دون رجعة ، فلابد أن ترتبط غربة الشاعر عموما عن وطنه بالحزن والقلق والضياع.»[1]

يعد امرؤ القيس أول من بكى الأطلال، ويقول في مطلع معلقته:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمـــأل[2]

رحلت الحبيبة مع قبيلتها فبدأت غربة الشاعر الذي كان يعزي نفسه بالوقوف على الأطلال واصفا ما تبقى من تفاصيل حزينة في المكان ويربطها بغياب الأحبة ، الذين مالوا تلك الديار ، واليوم أصبحت موشحة خالية من قاطنيها ، فأضحت نفسه مثقلة بالآلام والأحزان والتحسر على ما مضى من ساعات الإنس والقرب والحنين إلى أيام الخوالي.

---

[1] المرجع السابق، ص146.

[2] امرؤ القيس، الديوان، اعتنى به وشرحه عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط 4، 2004م، ص21 وما بعدها.

يمكن أن نستخلص بأن الاغتراب المكاني في شعر الأطلال كامن في ظاهرة الغياب والإحساس الخانق بالفقد والحرمان والشوق.

3.2.3 الاغتراب الاجتماعي:

يقول حليم بركات: «يعني باختصار شعور الفرد بالانفصال عن جانب أو اكثر من جوانب المجتمع، أي مشكلات التفكك الاجتماعي وخلخلة القيم والطبقية التي تسود بين الفرد ومجتمعه، هو ما يؤدي إلى النزاع والاغتراب.»[1]

فهذا النوع من الاغتراب منتشر بكثرة بين الناس فهناك من يغترب وينفصل عن الناس، وهناك من ينفصل عن العادات المكتسبة ، كما نجد من يشعر بالغربة من الحكام وسياساتهم. فيعتبر هنا الاغتراب الاجتماعي تجسيد وتشخيص لأمراض المجتمع.

4.2.3 الاغتراب السياسي:

كما يعرفه محمد خيضر: «هو شعور المرء بعدم الرضا وعدم الارتياح للقيادة السياسية والرغبة في الابتعاد عنها وعن التوجيهات السياسية الحكومية والنظام السياسي برمته.»[2]

[1] انظر، حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الانسان بين الحلم والواقع، ص72.
[2] جديدي زليخة، الاغتراب، ص35.

كان منذ القدم ولا يزال لشاعر العربي مكانة سياسية، وخاصة في المجتمع ذو النظام القبلي، إلا أن حلول الاستعمار كان علامة إيذان بتطور جديد وخطير للنظام، وحل مكانه قانون الاستعمار الذي يحد من حرية الفرد، فهدم بنيان نظام تسييره الجماعي.

يرى حليم بركات: «أن تحليله لطبيعة الاغتراب السياسي لابد من التركيز على العلاقات بين الدولة والمجتمع، وفيه كشف لنا كيف يصبح الشعب نفسه خادما للدولة بدل أن تكون الدولة خادمة للشعب.»[1]

وهذا ما ولد في نفسية الفرد فقدانه وحرمانه لمكانته في مجتمعه، فكان من الطبيعي أن يشعر الشاعر بالاغتراب السياسي.

5.2.3 الاغتراب الاقتصادي:

الاغتراب الاقتصادي حسب محمد خيضر هو: «شعور العامل بانفصاله عن عمله، على الرغم من وجوده الجسمي داخل المنظمة، والشعور بالعجز والملل والرتابة في أداء عمله ويضيف ايضا أن الانسان قد أصبح مغتربا عن عمله اليومي فهو بالضرورة يكون قد اغترب عن نفسه »[2]، بما أن الإنسان مرتبط بالمؤسسات الخاصة بالملكية والتبادل الاقتصادي، فإنه بالضرورة يميل إلى الابتعاد عن الآخرين ويجعل منه كائنا بعيدا عن إنسانيته. فلا يخفى علينا الجانب المادي في شخصية الإنسان ونزوع روحه إلى المادة، حتى غدت جزءا منه وعنصرا من وجوده ، والشاعر حين يصف سلسلة من الاستلاب

[1] حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، ص92.
[2] جديدي زليخة، الاغتراب، ص349.

لمقوماته المادية بطرق غير مشروعة ، إنما يجسد الاغتراب الاقتصادي الذي تعلوه سمة من الحزن والقلق على حاله المعدمة والفقيرة.

4. جذور الاغتراب في الشعر العربي القديم:

إن المتأمل لظاهرة الطلل في الشعر العربي القديم يدرك أنها ليست مجرد لبنة من اللبنات الأساس في البناء الفني للقصيدة الجاهلية ، كما أنها ليست كما يقال عنها في النقد العربي القديم تقليد تم اعتماده لابتداء الأشعار، ولكنها تعدو ذلك لتكون بمثابة المنفذ الذي يعبر الشاعر من خلاله عن مواقفه من الوجود والأشياء ورؤيته الخاصة للعالم ، فهي بذلك لا تخلو من الصور والدلالات النفسية التي تنبئ عن الحالات الشعورية التي تعتري الشاعر، ومن بينها إحساسه العميق بالاغتراب. إذ تعبر بصور واضحة عن ظاهرة الغياب والفقدان، فقدان الوطن، منازل القبيلة، فقدان الأهل والحبيبة، فقدان الماضي السعيد والحياة الخصبة الممتعة.

ففي معلقة لبيد تسبب خلو الديار من أصحابها إلى تكاثر الوحوش بعد أن أنسب المكان بوقوف لبيد بالأطلال تذكر حبيبته نوار ووعى ما يسببه النأي من ألم للمحبين. يقول:

عفت الديار، محلها فمقامهـــــا بمنى تأبد غولها فرجامهـــــا

دمن تجرم بعد أنيسهـــــــــــا حجج خلون، حلالها وحرامها

فعلا فروع الأيهقان وأطفلـــــت بالجلهتين ظباؤها ونعامهـــا[1]

وكذا يعتبر امرؤ القيس من أكبر الشعراء الجاهليين الذين ذاقوا مرارة الاغتراب، فقد تغرب حين أنكر عليه أبوه قول الشعر، في قوله:

تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت على خملى خوص الركاب وأوجرا

فلما بدت حورات في الآل دونها نظرت فلم تنظر بعينيك منظـــــرا

تقطع أسباب اللبانة والهـــــوى عشية جاوزنا حماة وشيـــــــــزرا[2]

ففي هذا العصر عمدنا إلى إدراج بواعث الاغتراب عند أهم الشعراء الجاهليين وإلى كيفية قهرهم لهذه الظاهرة التي بدت مستفحلة في قصائدهم ، وهو ما ينبني عنه مطالع معلقاتهم ، بالإضافة الى ما يمكن أن نستشفه من خلال مواقف بعضهم من النظام الاجتماعي القبلي الذي كان سائدا آنذاك، وشجع نمو مشاعر الاغتراب والتمرد عند مجموعة منهم أطلق عليهم تسمية: "الصعاليك".

5. الاغتراب والشعراء الصعاليك:

وإذا رجعنا إلى الشعر العربي القديم يمكننا العثور على بدايات وبواكير اغتراب الصعاليك، وذلك منذ العصر الجاهلي «وإذا رجعنا إلى حياة الإنسان الجاهلي لوجدنا أنها رحلة لا تهدا وراء الكلأ وانتقال من كان إلى مكان، وتتبع لمساقط الغيث حيث كان ،

[1] لزهر لمساعدية، نظرية الاغتراب بين المنظور العربي والغربي، ص66.

[2] المرجع نفسه، ص67.

فالهجرة والتنقل تأتي وفقا لضرورة عصية على إرادة الإنسان الجاهلي وهو لا يملك له دفعا.»[1]

إذن الهجرة والتنقل من مكان إلى أخر بحثا عن الكلأ والماء جعل من الإنسان يحس بالغربة وهو ينأى عن مكانه الأصلي إلى مكان أخر غريب عنه ، فيظل الاغتراب إحدى وسائل الكشف عن دقائق حياة الشاعر الصعلوك وتفاصيلها وإحدى صور الغوص وراء معطيات عالمه الخاص ، وكذا نلمح ألوانا أخرى من الاغتراب في الشعر الجاهلي ، كالاغتراب عن المجتمع وقيمه فهو واضح عند الكثير من الشعراء أمثال "طرفة بن العبد" مثلا الذي عاش ظروفا قاسية في حياته لما كان يحسه بمرارة غربة اليتم والظلم، و في قوله:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند[2]

فقلقه مع عزة نفسه، كثرة الضغط ما دفعاه إلى التمرد والثورة على المجتمع.

«وظهر الاغتراب في المجتمع جليا عند فئة من الشعراء الجاهلية هي فئة الشعراء الصعاليك الذين يمكن أن نميز فيهم مجموعتين: مجموعة فرض عليها هذا الاغتراب وتتألف من الشعراء الخلعاء الذين نبذتهم قبائلهم وطردتهم من حماها ، وقطعت كل صلة بينهم وبينها بسبب تصرفاتهم التي تخالف منطق القبيلة وقوانينها. مما لا شك فيه أن اغتراب هذه الطائفة كان نتيجة دوافع اجتماعية وسياسية واقتصادية وجغرافية. ولكن

[1] سميرة سلامي، الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، دار الينابيع، ط1، 2000م، ص69.

[2] لزهر لمساعدية، نظرية الاغتراب بين المنظورين العربي والغربي، ص68.

ومهما كانت الأسباب المؤدية إلى اغتراب الصعاليك وسواء كان اغترابهم مفروضا أم اختياريا فقد جمع بينهم على اختلاف قبائلهم الفقر والجوع والتشرد.»[1]

وعن الفقر الذي عانى منه الكثير من الناس نجد عروة بن الورد مخاطبا زوجته:

دعيني للغنى أسعى، فإنني رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخير

ويقصيه الندي وتزدريه حليلته وينهره الصغير

ويلفى ذو الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير

قليل ذنبه والذنب جسم ولكن للغنى رب غفور[2]

وهذا الفقر الذي استبد بحياة الصعاليك خمل لهم في ركابه الجوع ، نتيجة طبيعية له، فهنا يوضح أن حديث عروة هذا هو نقد للمجتمع وللمعايير التي يصنعها للحكم على أفراده، فهو لا يدعو في حديثه إلى السعي للغنى إيمانا بأن درجة الفقير وضيعة، إنما يدعو لمواجهة هذا المجتمع بالطرق الكفيلة التي تضمن للفرد الحفاظ على كيانه وحريته وقيمته ودرجته في المجتمع.

[1] انظر، سميرة سلامي، الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص84 وما بعدها.

[2] لزهر لمساعدية، نظرية الاغتراب بين المنظورين العربي والغربي، ص70.

وهناك بالإضافة إلى هذه الفئة من الصعاليك التي هجرت المجتمع القبلي فئة أخرى اغتربت عن العالم الإنساني كله فهجرت مجتمع الإنسان إلى الصحراء البعيدة حيث الوحوش والحيوانات المختلفة فصاحت هذه الوحوش وأنست بها يقول" تأبط شرا " واصفا نفسه لإمرة يريد خطبتها :

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنـــه ويصبح لا يحمي لها مرتعـــــا

رأين فتى لا صيد وحش يهمـــه فلو صافحت أنسا لصافحنه معا[1]

فهو قد عاشر الوحوش طويلا وآنس بها، لهذا اطمأنت له و ألفته، حتى لتوشك أن تصافحه.

كل هذه العوامل دفعت الصعاليك إلى الثورة على المؤسسة القبلية التي سلطت على أفرادها قيما مادية ومعنوية أرهقتهم وزعزعت استقرارهم، وذلك لأن الحياة القبلية مؤسسة على مبدأ القوة أولا ، وعليه فإن تحقيق المساواة كان ضربا من المستحيل ، وقد أدى هذا الواقع الظالم بمجموعة من الأفراد (الصعاليك) إلى الرفض والتمرد على قيم القبيلة والخروج عن تقاليدها، تلك الأعراف التي أساسها القهر والظلم، فالقبيلة لم تقدر هؤلاء ولم تع بتوف بكفاءاتهم (معظمهم كان يمتلك صفات الشجاعة والقوة) واحتقرتهم لفقرهم، فكرهوا الفقر ، لأنه سبب في هوان منزلتهم الاجتماعية و «المتأمل في أخبار الصعاليك وأشعارهم يلفت نظره إحساس مريب بوقع الفقر على نفوسهم، وشكوى صارخة

[1] انظر، المرجع السابق، ص70.

من هوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم ، وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم ، أو الوقوف معهم على قدم المساواة في معترك الحياة، لا لأنهم عاجزون وإنما لان مجتمعهم ظلمهم وحرمهم من تلك العدالة الاجتماعية التي يطمح إليها كل فرد في مجتمعه، وجردهم من كل الوسائل المشروعة التي يواجهونها بها الحياة كما يواجهها غيرهم.»[1]

وإن كان الكثير من الشعراء الصعاليك تخلوا عن الجنسية القبلية بكامل إرادتهم أمثال الشنفرى...، لا يخفى عنا أيضا أنه الكثير منهم أجبروا على فعل ذلك، وقد لقبوا بالخلعاء، لأنهم جردوا من الجنسية القبلية وطردوا من القبيلة، وذلك لخروجهم عن إرادتها ورفضهم لها، أو لما تركوه من جرائر فتبر أت من نسبتهم إليها، حتى لا تتحمل حمايتهم ، ومن بين هؤلاء نجد قيس بن الحدادية الذي أشار إلى عمق المرارة التي ولدتها أزمة الخلع في نفسه قائلا:

أنا الذي تخلعه موالي ـــــــــــــه وكلهم بعد الصفا قالي ـــــــــه

وكهلهم يقسم لا يبالي ـــــــــــــه أنا إذا الموت ينوب غالي ـــــه[2]

[1] يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي، ص33.

[2] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تح: إحسان عباس وإبراهيم السعافي، دار صادر، بيروت، ط2، 2004م، ص102.

فالخليع وضيع في مجتمعه ، يدفع به عنف الحياة في الصحراء ليواجه مصيره المجهول وحيدا دون حماية حتى تتبخر الطمأنينة والأمن اللذان يوفرهما الانتماء والقرب من الأهل.

بناء على ما سبق، نستطيع أن نقول بـأن الواقع الجاهلي ببعديه: الطبيعي (البيئي) ممثلا في هجرة العربي بحثا عن مواطن الماء والكلأ ، والاجتماعي ممثلا في نظام المؤسسة القبلية القائمة على الطبقية الاجتماعية فرض عليه الاغتراب بكل صوره وأشكاله، وحرمه من الاستقرار والطمأنينة.

1. لامية العرب:

لامية العرب قصيدة لشاعر جاهلي هو الشنفرى، تحتوي على 68 بيتا تنطلق من لسان البادية الأولى وحياة التشرد والعنف، وهي من أشهر قصائد الشنفرى، بل هي من أشهر ما أبدع الشعراء العرب قديما وحديثا، وشهرتها الأدبية واللغوية بلغت الآفاق، عرفت بـــ "لامية العرب"، دون سواها من لاميات الجاهليين، وقد تناولها مشاهير الأدب واللغة بالشرح والتحليل، ومنهم الزمخشري والمفضل الضبي والمبرد وغيرهم، كما أعجب بها المستشرقون، فنفضوا عنها الغبار وقدموها لقرائهم بلغات مختلفة، ليتمتعوا بهذا الأدب الرفيع ويضيفوا إلى أدبهم ثروة تساهم في النمو الفكري، ولعل أسباب ولع الأدباء والمستشرقون بها، أنهم وجدوا فيها صورة متقنة لحياة الأعراب في الجزيرة العربية، وكذا جزالة ألفاظها، وتعبيرها الصادق عن حياة العربي وأخلاقه زمن الجاهلية، وعن حياة الصعاليك على وجه الخصوص.

يقول السيد عمارة: «لم تحظ قصيدة عربية في القديم أو الحديث بمثل ما حظيت به لامية الشنفرى من اهتمام وعناية من الباحثين والدارسين، فقد تداولها الرواة، وتناقلها كثير من العلماء بالشرح والتحليل، ولعل أشهر هذه الشروح هو: أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري، كما شرحها المبرد ت 285 وهو أول شارح لها، وشرحها أبو بكر بن دريد ت 321، وعبد الله بن الحسين العكبري ت 616، كما ذكر القصيدة بأكملها أبو

علي القالي في أماليه، ثم جاء المستشرقون وأولعوا بها وأكبوا على دراستها وترجموها إلى اللغات الأوربية المختلفة.

فهذا بروكلمان صاحب كتاب تاريخ الأدب العربي يسرد كثيرا من دراسات المستشرقين وترجماتهم لها، ويصف اللامية بأنها تمثل مذهبا شعريا مستقلا، كما أكد ذلك جورج ياكوب في تقديمه للامية، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلي وصف الطبيعة من الجبال والفيافي وغيرها غرضا مقصودا لذاته، يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسي بهيج لتصوير الإنسان نفسه وإعماله، ويعقب على هذا الحديث بأنها قصيدة لامعة بين قصائد الشعر الجاهلي وأنها للشنفرى وليست لغيره.»[1]

هذا ما ذهبت إليه حنا الفاخوري، ترى بأن: «الفقر والنفس البدوية الغريزة هما مصدر شعر الشنفرى، فجفاف الصحراء ومطاردة الشدائد كرا وفرا، والتنكر للمذلة، وإيثار الوحوش على الأهل لأنها أحفظ على السر وأحرص على الجار وإن جار.»[2]

لامية العرب تصور لنا حياة الصعلوك الجاهلي وروحه البدوية الوحشية، وكذا تبرز لنا تشاجر الشنفرى مع الجوع وتغلبه عليه، في ظل الظروف القاسية ما أجبره على استخدام ألفاظ وعرة وحشية، فشعره هذا يمتاز بنزعة إنسانية واشتراكية ساذجة وحكمة طبيعية.

[1] السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق، ص63 وما بعدها.

[2] حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، دار الجيل، بيروت، ط1، 1986م، ص176 .

يقول السيد أحمد عمارة: «ولعل سر هذا الاهتمام الكبير من العرب والمستشرقين بهذه القصيدة حتى تؤلف فيها هذه الشروح المتعددة وحتى يحرص الغربيون على ترجمتها إلى لغتهم أنها تصور لونا من ألوان الحياة العربية وتعبر عن حياة طائفة من هذا المجتمع وهم الصعاليك، كما تصور البيئة التي اتخذوها موطنا لصعلكتهم وميدانا لنشاطهم ومركزا لغاراتهم، بما تشتمل عليه هذه البيئة من خصائص مناخية أو طبيعية كل هذا في أسلوب شعري متفرد متميز، بالإضافة إلى القاموس الشعري الخاص بها والمادة اللغوية التي حوتها، وقد صورت القصيدة حياة الصعاليك ومعيشتهم ومدى ما يتعرضون له من المشاق وما يكابدون في حياتهم من الجوع وشظف العيش وقسوة الحرمان، بالإضافة إلى خصائصهم الجسمية والنفسية، فهي صورة صادقة لما عرف عن شعرهم وعن أخبارهم، وكأن الاهتمام بها راجع لغرض لغوي، وآخر اجتماعي. ولذا كانت هذه القصيدة اللامية درة أدبية ثمينة.»[1]

2. تجليات الاغتراب في لامية العرب للشنفرى:

يمكن تقسيم لامية العرب إلى مباحث وكل مبحث يندرج فيه عنوان يبرز لنا عوامل اغتراب الشاعر ويدرس مضامينه، وفي هذا المبحث الشاعر يدرج لنا عتابه على قومه قوله :

أقيموا بني أُمي صدور مَطيكـــــــم فإني إلى قوم سواكم لأميَـــــــلُ

[1] السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق، ص64.

فقد حُمت الحاجات والليل مُقمـــــــــر وشُدت لطِيات مطايا وأرحُـــــــــلُ

وفي الأرض منأى للكريــم عن الأذى وفيها لمن خاف القلي مُتعـــــــزَّلُ

لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ سرى راغبًا أوراهبًا وهو يعقـــــلُ[1]

يستهل الشاعر لاميته بالقطيعة مع قبيلته، وبتر العلاقة مع ذويه، والانسلاخ عن نظامهم الاجتماعي. إذ تدارك بداخله شعورا عميقا بالغربة والألم وإحساس النبذ من القبيلة فهو يخاطبهم بصلة الأمومة، وهي أقرب الصلات إلى العاطفة والقرابة وأكثر ما يفتقده الصعلوك الطريد يقول لهم ها انتم اقرب الناس في الصلة وأبعدهم في نفس الوقت.

وهذا عتاب صريح لأهله الذين نفروا منه، ورفضوه وخلعوه، فيقول لهم إن الأرض واسعة لما رحبت فلن أحتاج إليكم، وهنا يرفض الانتماء إلى قومه، و يغترب عنهم، بالكاد يبحث عن انتماء جديد.

حيث يتبين لنا أن لامية الشنفرى منذ الوهلة الأولى استطاعت أن ترسم لنا صورة الشاعر ومعاناته التي تمثل في «حالة الانصياع والاستكشاف عن مجاورة المشروع الاجتماعي، والتحول أو التسرب إلى خارج المنظومة الجماعية (القبيلة)، ويرى في الأرض منأى، فإنه لا يقف من المجتمع موقف إلا قبول فحسب، بل هو ينهج نهجا هروبيا ينسحب وفقا له إلى الطبيعة، خشية الأذى.»[2]

[1] الشنفرى، لامية العرب، شرح ودراسة عبد الحليم حفنى، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 1، 1429هـ/2008م، ص8 وما بعدها.

[2] يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ط، 1975م، ص 21.

ففي هذا المعنى هو يلتقي مع الشعراء الرومانسيين في مسألة البحث عن عالم أمثل، ولكن انتهى مثله هذا بالهروب إلى الطبيعة بوصفها العالم المنشود الذي يضمه، ثم إن الشاعر بتصويره لنزعته الانفصالية يكرس الذات، وهذه النزعة نتجت عن إحساس العزلة والغربة النفسية. فهجر بصرخة قوية انبعثت من أعماقه، يرفض من خلالها البقاء في كنف القبيلة، وهذا الشعور يصور لنا نكوص الشنفرى، وقيامه بسلوك يتناقض والسلوك الانطوائي، الذي فجر قضية الشاعر وخروجه عن العزلة وتفضيله الهروب إلى مجال أرحب وأوسع.

وفي هذا المجال نجد أن الفرد يفضل الرحيل والابتعاد عن البعض، بالكاد يفضل التحرر من قيود القبيلة، ويعتزل الناس حتى يبرئ نفسه من الذل والأذى، وهذا ما يندرج ضمن الاغتراب الاجتماعي.

إذ يعلن صراحة الثورة على الأهل والعشيرة، وقد كان هذا الإعلان بالانفصال النهائي، لأنه كان يعاني منه كما صرح به في الأبيات السابقة وهذا المعنى يؤكد ضراوة الصراع بين الشنفرى وقبيلته، وكان الصراع يشتد كلما تجاوز حدود القبيلة التي أعلنت بتنظيم رغبات الفرد وأهوائه، والتسلط عليها وضبط نشاطها، وهناك لا يمكن أن يكون الشنفرى على وفاق مع قبيلته، ولا يؤمن ببعض العقبات والاعتراضات التي تقيمها القبيلة حكرا على سلامته وبقائه، وهو يؤمن بأخلاقيات وجماليات مبنية على الشعور بالحرية

والانفلات وإثبات الذات، وإعلاء صوت الغريزة، بينما تؤمن القبيلة بأخلاقيات وجماليات مبنية على الشعور بالموانع والعوائق.

«تعبر هذه الأبيات عن الهموم التي تعتري الشاعر من صراعه من بني قومه، ومن المجتمع الذي ينتمي إليه، فقد بدأها بالحديث عما يحس به من نفرة وسأم وملل راح بسبب ذلك يتهيأ للرحيل عن قومه مخاطبًا إياهم بأن يقيموا صدور مطيهم لا ليرحلوا هم وأنما ليستعدوا لرحيله، فقد كره مقامه بينهم ورغب في مكان سوى هذا المكان، وبرحيله أصبحوا لا مكان لهم فمن الخير أن يرحلوا كذلك، وقد عقد العزم على ذلك وصار مقتنعًا بمسلكه وما يقوم عليه من التصرف، فلم ير في قومه من الشمائل ما يشجعه على البقاء بينهم والحفاظ على ودهم فليضرب في جنبات الأرض الفسيحة مرددًا قول الشاعر:

إذا أنت لم تكرم بأرض فارتحل فلا خير في دار يهان كريمها

وهو واثق أن الأرض لن تضيق بأمثاله ممن يأبون الضيم ويرفضون المهانة والمذلة بل فيها متسع لمن يمشي في مناكبها يطلب العيش الكريم.

والشاعر هنا يعرض حجته في مفارقته لقومه مع حرصه على رعاية أواصر الرحم التي تربط بينه وبينهم، فالحاجات قد حمت وآن أوانها المقدر، وقد اتضحت أمامه الرؤيا وفكر في هدوء واتزان فاتخذ قراره بالرحيل والكريم يربأ بنفسه عن الأذى فيهاجر إلى مكان بعيد، كما أن اعتزال الناس أكرم من الإثقال عليهم واحتمال نفورهم وكراهيتهم.

ثم يقسم الشاعر أن الأرض واسعة لصاحب الحاجات والآمال فإذا عجز عن تحقيقها في مكان ما فليرحل إلى غيره، ومن فقد الأمان في أرض فليطلب سواها عله يجد الأمن في جنياتها، فالعاقل الحازم هو الذي يحتال بالهجرة ليحقق ما ابتغاه بدل أن يستسلم للواقع فيعيش في فزع فضلًا عن عجزه عن تحقيق آماله، والحر لا يعز عليه أن يعثر على مكان يهنأ به وينأى عن الهوان.»[1]

لقد وجد الشنفرى عند الحيوانات والوحوش المفترسة ما لم يجده عند أهله وقبيلته، في قوله:

ولي دونكم أهلون سيد عَمَلَّـــــس وأرقط زهلول وعرفاء جيـــألُ

هم الأهل لا مستودَعُ السرِ ذَائـــعٌ لديهم ولا الجاني بما جر يُخْذلُ

وكل أَبِيٌّ باسِلٌ غير أننـــــــي إذا عرضت أولى الطرائد أبسلُ

وإن مُدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجلُ

وما ذاك إلا بسطة عن تفضـــلٍ عليهم وكان الأفضل المتفضل[2]

الشنفرى تغرب عن قومه وفضل الوحوش المفترسة، وذهب بعيدا لكي لا يراه أحد، وفي هذه الأبيات قارن بين مجتمع البشر ومجتمع الوحوش، ففضل هذه الأخيرة لأنها مأمن الشر، ولا تخذل بعضها البعض في أصعب المواقف، وانتماءه هذا لا يغذيه الوهم، لأنه يبحث عن ملاذ أمني جديد يركن إليه، وينعم بالاستقرار، فهذا الانتماء المنشود هو

[1] السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق، ص12 وما بعدها.

[2] الشنفرى، لامية العرب، ص.ص 11.9.

انتماء موهوم متخيل يسعى الشنفرى للاقتناع به، فهو يبحث عن الحرية ، ويظهر أنه صعلوك اتعب أفراد قبيلته، وجر عليهم متاعب كثيرة بسبب غاراته عليهم، وغزواته، مما اضطر قبيلته بطرده، ويرى يوسف اليوسف أن هذا هو السبب «الذي جعل الجماعة ترفضه، وهو الأصل الواقعي لحالة اللا إنتماء التي يعاني منها الشاعر والتي مازال يبحث عن حل لتوتراتها وصراعاتها الداخلية، وفي وسعنا أن نفسر الصعلكة تفسيرا نفسيا –مع مراعاة أولوية تفسيرها الطبقي– بأنها ظاهرة من ظواهر الانتماء إلى نحن جديدة.»[1]

يقول السيد أحمد عمارة: «وقد اختار مجتمعا غير مجتمع الناس جميعا أنه مجتمع الوحوش، يعايش الحيوان المفترس والأسد الضاري، والنمر الأرقط، والضبع الطويلة العرف، هؤلاء جميعا هم الأهلون الذين يؤثرهم على قومه ويفضلهم على الناس جميعا ثم يعود ثانية للحديث عن أهله الجدد واقتناعه بالانتساب إليهم ويعبر عن هذه القناعة بأسلوب القصر الذي يعني أنه لا أهل سواهم، ويبد وأنه ألف هذه الوحوش وعرف طبائعها، ولذلك وصفها وصفا كاملًا يخفي وراءه شعورا بالألم والضيم من قوم يذلونه ويتخلون عنه في المقام الحرج، وهو هنا يقارن بين مجتمع الناس الذي هجره، ومجتمع الوحوش الذي ألفه فيقول:

هم الأهل لا مستودع السر ذائـــــــع لديهم ولا الجاني بما جر يخـــــذل

ففي مجتمع الوحوش تتكتم الأسرار، ولا يتخلى القوي عن الضعيف فلا يخذله أو يسلمه حتى في أشد المواقف وأكثرها حرجًا، وهو بذلك يشير إلى سبب هجره لمجتمع

[1] يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص 213 .

الناس حيث لا يؤتمن أحدهم على سر، وفي هذا تعريض بأهله لأنهم على النقيض من ذلك.

ثم أخذ يصف هذه الوحوش التي اتخذ منها أهلًا وأصحابًا، فهي تتسم بالبسالة والشجاعة، ومع شجاعتها الفائقة فهو أكثر جرأة منها حين تعرض له الفريسة فيطاردها، فلا يكل إلى هذه الوحوش أمره ولا يعتمد عليها في الدفاع عنه، فله من شجاعته وبسالته ما يتخذه درعًا وسندًا يضرب به الأمثال، فالشاعر هنا يقارن بينه وبين الوحوش.

ومع هذه الشجاعة الفائقة فله من عفته وقناعته ما يدفع عنه تهمه الجشع، فإذا كان يسبق إلى الفريسة ويزاحم في صيدها فلا يسبق إلى أكلها فحسبه ما يتمتع به من غنى النفس مع تفضل على الفقراء والمعوزين.»[1]

وإذا تساءلنا عن سر تحويل الشاعر من القبيلة الذي هو مجتمع إنساني إلى مجتمع الحيوانات الذي هو مجتمع بديل؟، هو ما يشعر من اغتراب نفسي والتهميش من قبل المجتمع الإنساني (القبيلة)، فيجد نفسيته متصدعة من جراء تزعزع علاقته بالقبيلة، وحرمانه من العيش بين أفرادها ومن هنا نجد أن الشاعر ظهرت له آليات جديدة يدافع فيها عن نفسه، لذلك لم يكن سلوك الانتماء الذي قدمه سوى حلم أو وهم يغذيه الحرمان والقهر، فيستشرف مجتمعا جديدا.

[1] السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق، ص13 وما بعدها.

فبعد تعرضه (الشنفرى) للطرد والخلع من القبيلة، لا محال في ذلك، لأن يسعى إلى البحث عن مكان تعويضي يكمل فيه مسار حياته، وعائلة يأنس بها في وحدته، يقول:

وإني كفاني فقد من ليس جازيـــا بحسنى ولا في قربه متعلـــــل

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيـــــــع وأبيض إصليت وصفراء عيطـل

هتوف بين الملس المتون تزينهـا رصائع قد نيطت إليها ومحمـل

إذا زال عنها السهم حنت كأنهـــا مرزأة عجلى ترن وتعـــــول

واغدوا حميص البطل لا يستفزنـــي إلى الزاد حرص أو فؤاد موكـــل

وليست بمهياف يعشي سوامـــه مجدعة سقبانها وهي بهـــــل

ولا جبّأ أكهى مربّ بعرســـــه يطالعها في شأنه كيف يفعـــل

ولا خرق هيق كأن فـــــؤاده يظل به المكاء يعلو ويسفـــل

ولا خالف دارية متغـــــزل يروح ويغدو داهنا يتكحـــــل

وليست بعل شره دون خيـــره ألف إذا ما رعته أهتاج أعـــزل

وليست بمحيار الظلام إذا انتحت هدى الهوجل العسيف بهماء هوجل

إِذَا الْأَمْعَزُ الصَّوَانُ لاقَى مَنَـاسي تَطَايَرَ مِنْهُ قَـــــادِحٌ وَمُفَلَّلُ[1]

في هذه الأبيات كشف لنا الشاعر عن عيوب كثيرة، ذكر فيها النظام القبلي، كما تحدث عن انتمائه الجديد ومعاشرته للوحوش، ثم انتقل للحديث عن شجاعته وبسالته، فيرى نفسه شخصا قويا، وزعيما لا يشق له غبار. فقد تحدث في الأبيات السابقة عن ثلاثة

[1] الشنفرى، لامية العرب، ص.ص 15.11.

وحوش عاش معهم، وجعل منهم مؤنسا تعوض عليه فراق أهله وحرمانه، وفي هذه الأبيات يتحدث عن ثلاث أشياء أيضا، وهي: قلب حديدي، سيف حاد صقيل، وقوس قوية مكتملة.

يتحدث عن ذاته لأنه يمتلك قلبا حديديا لا يهاب الموت، كما يمتلك سلاحا حاد، وهذا السلاح هو امتداد لشخصيته، ويمتلك كذا قوسا، وكل هذا يؤكد قوته الخارقة التي يتصدى بها، كما أن هذا السلوك المتصدي هو الذي دفعه إلى التركيز على القوس، والإمعان في إضفاء القوة عليها، لذا أطنب في وصف القوس وإظهار فعاليته، وهو بهذا الوصف إنما يتمعن في قوته هو، بل في توكيدها، ثم ينتقل بعد ذلك إلى نفي السلب عن الذات، وهذا النفي هو إثبات لأنه يفاخر بنفسه، ولكننا حين نفهم أن «اللا انتماء يتسم بقدرة حركية دينامية عظيمة، أعني القدرة على تحريض النفس لتنتقل مع موقع إلى آخر، نستطيع أن ندرك هذا التفنج ...»[1]

يقول السيد أحمد عمارة: «وقد فقد الشاعر قومه وهجرهم حين وجد أنه لا خير منهم، حيث لا يقدرون المعروف ولا يفهمون معنى الجميل ولا يكافئون عليه، وليس هناك من سبب واحد يحمله على البقاء معهم ويساعده على الحياة في كنفهم، فله عزاء عن فقدهم، وعزاؤه يتمثل في رباطة جأشة وثبات قلبه، كأنه في ثباته محمي ومنصور بشيعة له وأنصار، كما يتمثل في سلاحه: سيفه الصقيل الذي يضرب به عن قرب وقت الالتحام،

[1] يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص219 وما بعدها.

وقوسه المتينة التي تخطئ الأهداف عن بعد حين تنطلق منها السهام سواء أكان هذا الهدف من الأعداء أم من الصيد.

ويأخذ في وصف هذه القوس رفيقته في الجهاد وعونه على الأعداء فهي ملساء الصلب والجوانب، تسمع لها نغمًا معينًا وصوتًا قويًا عند انطلاق السهم عنها للدلالة على قوتها وسلامتها من العطب، بالإضافة إلى أنها محلاة ومرصعة ببعض ما يزينها فاهتمامه بمظهرها وشكلها لا يقل عن إهتمامه بجوهرها ومادتها، فهو يعتز بها لأنها قوس عجيبة تسمع له صوتًا حين يزل عنها السهم وينطلق أشبه ما يكون بصوت الثكلى الحزينة في رنة صوتها وعويلها، ووصف الثكلى بكثرة الرزايا، والسرعة تشير إلى جودة القوس وكثرة السهام التي ترمى بها وسرعتها في انطلاقها، وهذا يعني أنه ليس له أصحاب، أنه وحده صاحب نفسه، والسيف والقوس وسيلتاه للدفاع عن النفس والبقاء.»[1]

الشنفرى هنا ينطلق من لا شعوره، ويحاول أن يقنع نفسه أن ينتمي إلى وجود إنساني جديد هو نفسه أو شخصيته، وهذا الإقناع هو نوع من التعويض النفسي عن انتمائه السابق للقبيلة. لذا سعى إلى إثبات هذا الانتماء إلى ذاته، فانطلق يفخر بها، ويصف مغادرته مرابع القبيلة، وكثرة سيره، وهذا في الواقع يعد خطة دفاعية نفسية، تتم بصورة لا شعورية في الغالب لتؤكد حرص الشاعر على قوته التي لا تقهر.

أما الاغتراب الاقتصادي، فيعزى إلى أن حياة القبيلة في العصر الجاهلي ، كانت تقيم على النظام الإقطاعي الذي يستأثر فيه السادة بالثورة، في حين كان يعيش معظم أفراد

[1] السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق، ص15

الطبقات الأخرى مستخدمين أو شبه مستخدمين، فظهر من بين الأحرار أنفسهم نفر رفضوا أن يستغل الإنسان أخاه الإنسان، وخرجوا على قبائلهم باختيارهم لينتصروا للضعفاء و المقهورين من الأقوياء المستغلين.

ومن المنظرين للاغتراب الاقتصادي نجد ماركس الذي «اعتبره عملية يفقد الفرد خلالها التعبير عن ذاته التي تحولت وصارت تبدو متمثلة في استغلال إنتاج العمال بواسطة الرأسمالي، فعد الأخذ بتقسيم العمل، ويعدو لكل امرئ مجال محدد ومغلق لتقسيم العمل المفروض عليه ولا منجاة له منه فيصبح صائد للحيوانات أو الأسماك أو راعيا ويتعين أن يظل كذلك إذا لم يشأ أن يفقد وسائل كسب معيشته.»[1]

وبالكاد إن لم يتمكن من إنتاج ذلك، أو عدم قدرته على كسب قوت شره، ينتهي به المطاف إلى الموت بالجوع.

لقد استبد الفقر بحياة الصعاليك وجعلهم تائهين في الصحراء والوحوش باحثين عن لقمة يسدون بها بطونهم لأن الجوع من بين الأسباب التي تجعل حياة الفرد غير مستقرة وغير آمنة ولا اقتصادية، هذا ما نجده في قول الشنفرى:

أُدِيْمُ مِطَالَ الجُوْعِ حَتَّى أُمِيْتَـــــــــه وأضرب عنه الذكر صفحًا فأَذْهَــل

وأستف ترب الأرض كي لا يَرَى لَـــهُ عليَّ من الطَّول أمرؤ متطـــــولُ

ولولا اجتنابُ الذام لم يُلفَ مشـــــرب يعاش به، إلا لدي ومأكـــــــلُ

[1] انظر، يحيى عبد الله، الاغتراب (دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005م، ص 25 وما بعدها.

ولكن نفسا مرَّة لا تقيم بـــــــــــي على الضيم، إلا ريثما أتحـــــولُ

وأطوي على الخُمصِ الحوايا كما انطوت خيوطة ماريٍّ تغار وتفتـــــــلُ

وأغدو على القوت الزهيد كما غـــــدا أزلّ تهاداه التنائف أطحـــــــلُ

غدا طاويا يعارض الريح هافيـــــــا يخوت بأذناب الشعاب ويعســلُ

فلما لواه القوت من حيث أمَّـــــــه دعا فأجابته نظائر نُحَّـــــــلُ[1]

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات المثالية على كيفية التعامل مع صعاب الحياة ومواجهة المصير، وما يعانونه من جوع وفقر، حيث يبين كيف يغالبه وهو نسيانه وتجاهله، وكأنه غير جائع، فيتحدث في الشطر الأول من البيت الأول عن انصراف الجوع عنه أما الشطر الثاني فيخبرنا كيف ينتصر عليه حتى ينساه ، مما يدل على صدق صاحبه في التعبير عن واقعه الذي كان يعاني منه، أما في البيت الثاني يفضل أن يستف تراب الأرض على أن يمد يده إلى أحد طالبا نعمة أو فضل، كان بإمكانه أيضا الحصول على المأكل والمشرب بأي طريقة كانت، ولكن نفسه الآبية أبت ذلك، أما في الأبيات الأخيرة فيشبه نفسه بذلك الذئب الجائع الذي يريد اصطياد فريسته وهذه الصورة تدل على خبرة الصعلوك ببيئة الوحوش.

يقول السيد أحمد عمارة: «ويعود الشنفرى ليتحدث عن بعض صفاته التي طبع عليها والتي تدور حول صبره وقدرته على التحمل، فهو بطيء العطش يدخل بإبله وسوامه إلى المرعى البعيد لتنال منه، وليس كالراعي الإحمق الذي لا يحسن غذاء سوامه، فيعود بها

[1] الشنفرى، لامية العرب، ص.ص 17.15.

مع العشاء جائعة أولادها، لأنهم يمنعونها عن رضع أمهاتها كي يبقى لهم من جائعة أولادها، لأنهم يمنعونها عن رضع أمهاتها كي يبقى لهم من الحليب ما يشربون، وترى صغار إبله سمينة، لأن أمهاتها ليست عليها صرار، فجوع الأولاد كناية عن جوع الأمهات، فلهو في ذلك خبرته وتجاربه ثم ينفي عن نفسه الجبن وقلة الخبرة وسوء الخلق، فلا يقعد عن طلب الرزق والكسب اكتفاء بالجلوس مع عرسه شأن الصعلوك الخامل الكسلان، وإنما له من همته ونشاطه وصدق عزيمته ما يدفعه للكسب ويعينه على الرحلة والانتقال، فليس ضعيف الشخصية عديم الرأي يستعين بالآخرين في تيسير أموره ويعتمد على توجيه زوجه ومشورتها.

كما أنه ثابت القلب مطمئن النفس لا تزعجه المخاوف ولا يستسلم للتردد يسيطر عليه فيصبح كالظليم في نفوره عند حدوث ما يفزع فيضطرب فؤاده ويرجف قلبه ويصبح من اضطرابه كأنه معلق في طائر يرتفع به ويسفل وهو ليس قليل الخير لا يفارق داره فيصبح ويمسي جالسًا إلى جوار النساء لمحادثتهن، فينفي عن نفسه صفة التخنث والتشبه بالنساء في الادهان والتكحل كأنه منهن، ثم يثبت لنفسه قوة الجسم وعلو الهمة والثبات عند الروع وحمله لسلاحه حين يقول:

ولست بعل شره دون خيـــــــــره فإذا ما رعته اهتاج أعـــــــــزل

ألأي: ليس بضعيف الجسم والهمة يعلو شره خيره ويسبق إحسانه إساءته لا خير فيه، فلا يسعى في أمر حرب أو ضيف، إذا أفزعته أسرع إسراع الأحمق، فينفي عن نفسه هذه الصفات ويثبت لها عكسها.

كما أنه يعرف طريقه ويقصد إلى هدفه غير ملتفت إلى الوراء، فلا يتردد ولا يتحير حتى في الظلام، ولا يضل في الفلوات المقفرة التي تطوي الأحمق الذي لا يعرف دروبها ومسالكها، فهو واثق من خبرته بالصحراء واهتدائه للسير فيها حتى في الظلام، وهذه من ألزم صفات الصعلوك الماهر، فالصحراء هي ميدان نشاطه يزاول فيها هوايته في قطع الطريق والإغارة على المارة والأعداء. ثم أخذ يدلف من ذلك إلى الحديث عن بعض ما يعانيه ويتغلب عليه.»[1]

وفي قوله:

مهلهلة شيب الوجوه كأنهـــــــا قداح بكفي ياسر تتقلقـــــــلُ

أو الخشْرمُ المبعوث حَثْحَثَ دَبْـــرَهُ محابيضُ أَرْدَاهُنَّ سَلْمٍ معســـلُ

مهرتةٌ فوهٌ كأنَّ شدوقَهَـــــــا شقوق العصيِّ كالحاتٍ وبســـلُ

فضج وضجت بالبراح كأنهـــــا وإياه نوح فوق علياء ثكـــــلُ

وأغضى وأغضت واتسى واتست به مراميل عزاها وعزته مرمـــلُ

شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت وللصبر إن لم ينفع الشكو أجملُ

[1] السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق، ص.ص 21.19.

وفاء وفاءت بادرات وكلهـــــــا على نكظ مما يكاتم مجمـــــــلُ[1]

يواصل الشنفرى حديثه عن اللا إنتماء، ويصور لنا اغترابه الذاتي وما يعيشه، وإن كان يتحدث في الأبيات السابقة على حالة السلف والاعتداد بالنفس والاعتزاز بها عبر القوة، إذ يصور لنا حالته الذاتية، ويتحدث عن الجوع بصورة مكثفة، ثم يتحدث عن الذئب، بل يتوحد معه، فالذئب هو الشاعر نفسه، حتى أصبح الذئب يرمز إلى الجوع، فيرى يوسف اليوسف وفي وصف الشاعر للذئاب أنه: «تتجلى رغبته في النكوص عن متابعة السلوك غير المتكيف، وذلك عبر لفظتين يتقسمهما البيتان (ارعوى، وفاء)، وإذا علمنا أن أولهما تعني: تخلى وترك، وأن ثانيها تعني: دنى ورجع، فإن شعورنا برغبة الشاعر مروض ومقموع، وأن تفنجه السابق واللاحق لا يعدو كونه أسلوبا دفاعيا وحسب، إن ارعواء الذئب هو ارعواء الشاعر نفسه، وذلك لأن الذئاب هي إفتلاذات من أنسجة روح الشنفرى.»[2]

وهنا يدرج نظرته الذاتية، حيث اهتم بوصف القطا، ونومه وراحته وشروره ومشاغله، إذ انتقل –بطريقة مفاجئة– من الإرعواء إلى الاستعلاء، لأن نفسه متصدعة تنازعهما قيمتان متناقضتان، إحداهما تسعى إلى الاسترخاء والاسترجاع والاستسلام، وثانيها تسعى إلى الاستعلاء، من هنا جاءت دوافع رجراجة تنتقل بطريقة لا شعورية من

[1] الشنفرى، لامية العرب، ص.ص 20.18.

[2] يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص 222 .

مكان إلى آخر، وقد خلقت هذه الحالة عند الشاعر صراع بين الرغبة في النكوص والرضوخ، و الرغبة في التفوق، يقول:

وتشرب أَسْآري القطا الكدر بعدمـــا سرت قربًا أحناؤها تَتَصلصـــــلُ

هَمَمْتُ وهمت وابتدرنا وأَسْدَلَـــت وشَّمَر مني فارطٌ مُتَمَهـــــــــلُ

فوليت عنها وهي تكبو لعِقْـــــرِهِ يُبَاشِرُهُ منهل ذُقُونٌ وَحَوْصَـــــلُ

كأن وَغَاهَا حَجْرَتَيْهِ وَحَوْلَـــــــهُ أَضَامِيْمُ مِنْ سَفْرِ الْقَبَائِـــــل نُزَّلِ

تَوَافَيْنَ مِنْ شَتَّى إِلَيْهِ فَضَمَّهَـــــا كَمَا ضَمَّ أَذوادَ الأَصَارِيمِ مَنْهَـــلُ

فَعَبَّتْ غِشَاشًا ثُمَّ مَرَّت كَأَنَّهَـــــا مَع الصُّبْحِ رَكْبٌ مِنْ أُحَاظَةَ مُجْفِلُ

وآلَفُ وجه الأرض عند افتراشها بِأَهْدَأَ تنبيه سنا سِنُ قُحَّـــــــلُ

وأَعْدَلُ منحوضًا كأن فصوصـــــه كعاب دحاها لاعبٌ فهي مُثَّـــلُ[1]

فهذا ما أدى إلى حدوث انهيار عميق في النسيج الداخلي لنفس الشنفرى لأنه يريد التراجع عن سلوكه بعدم تكيفه مع الواقع، ويريد في الوقت نفسه المواضبة على ذلك السلوك، كون ثمن الحرية غال، ثم يفتح مجال الذكريات فيتذكر ماضيه، لما كان فردا من أفراد القبيلة، و لعل أول ذكرياته تستند إلى أم قسطل فهي لاشك لم تنساه، يقول:

فإن تبتئس بالشنفرى أُمُّ قَسْطَـــــل لما اغتبطت بالشنفرى قَبْلُ أَطْوَلُ

طَرِيْدُ جِنَايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَـــــهُ عَقِيْرَتُهُ لَأْيَهَا حُـــــــــمَّ أَوَّلُ

تَنَامُ إِذَا مَا نَامَ يَقْظَى عيونهـــــا حِثَاثًا إلى مكروهِهِ تَتَغَلْغَـــــلُ

[1] الشنفرى، لامية العرب، ص.ص 23.21.

وَإِلْفُ هُمُوْمٍ مَا تَزَالُ تَعُـــــــوده إِعِيَادًا كَحُمَى الرَّبْعِ أو هي أَثْقَــلُ

ذَا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُهَا ثُمَّ إِنَّهَـــــــا تَثُوبُ فَتَأْتي من تُحَيْتٍ وَمِنْ عَلُ[1]

يذكر لنا الشاعر حزن أم قسطل على فراقه، ويؤكد محبته لها، فطالما فرحت واغتبطت وهي تحضنه.

إن ما جاء به الشاعر صورة للانتماء الذاتي في مجتمعه الجديد الذي سبق وأن وصور فيه القطا بركب من أحضانه، أي نقل الانتماء الحيواني إلى الانتماء البشري، ولعل الذي عزز هذه الصورة هي لفظة (ركب) الذي صور بصدق حالة الالتئام التي يسعى الشاعر من خلالها إلى تصوير ركوعه التام ثم محاولته القفز على تخوم المجال، ليتخطى بذلك دائرة الخضوع بذاته. فيصف لنا الثقل الجاثم على صدره، من جراء الهموم التي تقض مضجعه، وذلك دون تكلف، فقد وصف لنا ما كان يحسه و يعانيه، ووصف النار التي اكتوى بها من جراء الهموم التي عصفت به.

«ثم يعرض الشاعر الألوان من المخاطر التي يتعرض لها متصديًا لنواميس الطبيعة المهلكة ويسعى إلى النجاة منها، مصورًا هزاله ونحافة جسمه فحين ينام يفترش الأرض دون فراش أو وساد على الرغم من نحوله وضموره ويستعين عن ذلك بظهر يابس العظام، فإذا انبسط على الأرض حالت أضلاعه ورؤوس عظام ظهره دون وصول جسمه إليها ... يريد أنه قليل اللحم وله عظام شديدة.

[1] المرجع السابق، ص24 وما بعدها.

لقد ألف هذه المشاق وألفتة وتكيف مع هذا الوضع الجديد الذي يدل على عصاميته واعتداده بفرديته وسعادته بانتصاره على الطبيعة والكون من حوله على أنه الآن يشارك في الحروب التي كان يشنها قومه على أعدائهم فقد كان ذلك قبل حياة الصعلكة حيث كانت تعرفه الحروب، ويدلي فيها بدلوه، وتفرح بمزاولته لها وأثارته إياها، وقد انصرف بعد ذلك إلى الصراع الخاص به والصعاليك، فإن حزنت الحرب لمفارقة الشنفرى لها الآن، فطالما اغتبطت وسرت به قبل ذلك.

ولقد كثرت جناياته وتعددت إغاراته وقتل الكثير من بني سلامان ومن غيرهم حتى بات الناس يطلبونه حيثما وجدوه ليقتلوه، فهو الآن مطارد ومطالب بجنايات تكاثرت عليه بحيث لا يكاد يعرف بأيها تؤخذ نفسه، على أن أصحاب هذه الجنايات باتوا يترصدونه، ويحرصون على الوصول إليه والتمكن منه وإن ناموا ظلت عيونهم يقظى باحثة عنه مترصدة له تدبر الانتقام منه والأخذ بثأرهم مبالغة في تصوير الجد في البحث عنه.

ولذلك فلا عجب أن تألفه الهموم وتعتاده وتتردد عليه في نظام يكاد يكون ثابتًا كأنها الحمى التي تعاود المريض من وقت لآخر، وربما كانت أشد وأثقل عليه منها، فهو تعبير عن ضيقه وقلقه ويظل في صراع مع هذه الهموم، كلما صرفها عادت من حيث أتت فتحدق به من كل جانب وأخيرًا يخاطب صاحبته التي تخيلها على عادة الشعراء الجاهلين معتزًا بشمائله وما ركب فيه من صفات ... فشغله الشاغل في ترقب الهجمة والمباغتة، أما الفقرة والغنى فكلاهما أمر طارئ غير ذي شأن، فلا سلطان لهما عليه لا يخاف الفقر

ولا يجزع منه فيكشف حاجته للناس ... وهكذا كان الشنفرى لا يستخفه الجهلاء والحمقى، ولا يتحدث فيما لا يعنيه ولا يقحم نفسه في أمر لا يهمه ولا يحرصون على إثارة الفتن والإفساد بين الناس فهذا ليس من خلقه، بل كل ما يعنيه أن يجالد في سبيل ما يدين به مهما كانت النتائج.»[1]

وفي قوله:

فإما تَرَيْنِي كَابْنَةَ الرَّمْلِ ضَاحِيًـــــــا عَلَى رِقَةٍ أَحْفَى وَلَا أَتَنَعَّـــــــــــلُ

فَإِنِّـــــي لَمُوْلِ الصَّبْرِ أَجْتَابُ بَـــزَّهُ عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السَّمْعِ وَالْحَزْمِ أَنْعَـــلُ

وَأُعْدِمُ أَحيانًا وأغْنَى وَإِنَّمَـــــــــا يَنَالُ الْغِنَى ذو البُعْدَةِ الْمُتَبَـــــــذَّلُ

فَلا جَزِعٌ من خُلة مُتَكشـــــــــف ولا مَرِحٌ تَحْتَ الْغِنَى أَتَخَيَّـــــــــلُ

وَلَا تَزد هي الأَجْهَالُ حِلْمِي وَلَا أَرَى سَؤُولًا بِأَعْقَابِ الْأَقَاوِيل أُنْمِـــــــلُ

وليلة نحس يَصْطلي القوسَ ربُهـــا وأَقْطُعَه اللاتي بِها يتنبـــــــــــل

دَعَسْتُ على غَطْشَ وبَغْشَ وَصُحْبَتِي سُعَارٌ وَإرزيز وَوَجْرٌ وَأَفْكَـــــــــلُ

فأيمتُ نِسْوَانًا وَأَيْتَمْتُ الِّـــــــدَةَ وعُدْتُ كَمَا أبدأتُ والليلُ أَلْيَـــــــلُ[2]

نلاحظ بروز النظرة الذاتية للشاعر، حيث يصر فيها على العودة إلى انتمائه الذاتي، وذلك بتشبثه بالأنا التي لازمته طوال لاميته، غير هذه المرة نجد أنه يتحدث عن ذاته بصفة مختلفة، لمناقضته للقبيلة وأعرافها، والإصرار على إقامة علاقة وطيدة مع

[1] انظر، السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق، ص.ص 51.49.

[2] الشنفرى، لامية العرب، ص.ص 28.25.

الموجودات والحيوانات، وذلك لما تفتقره نفسيته من حنان ورفق، ولا يخفى علينا أيضا وصفه لحالته الاجتماعية لغناه وفقره، ووصفه ما يعانيه من برد وحر، حيث يرسم لوحة فنية لإحدى ليالي الشتاء في الصحراء، نرى السماء في هذه اللوحة يتساقط منها المطر، ونرى الأرض قد ابتلت رمالها فأصبحت مرحلة، ونرى فيها بين السماء والأرض بردا قارصا بالغ القسوة، وفي هذه اللوحة صورة لصعلوك حائر بين مطر السماء ووحل الأرض وبرد ما بينهما، حيث حاصرته هذه العوامل، فاستبد به الجوع حتى بلغ أقصاه، واستبد به الخوف حتى ظل جسمه كله يرتعد ودفعه هذا البرد إلى تحطيم قوسه التي يزود بها عن حياته الوحوش والمخاطر فيوقدها هي ونصالها ليستدفئ بهن ويدفع عن جسمه البرد الشنيع.

ما يواصل في وصفه الشنفرى هو إبراز للاغتراب الذاتي، والاغتراب الاجتماعي وما يعانيه إزاء غربته، فيذهب للافتخار بذاته ويصف شجاعته وسرعة عدوه، يقول:

وَأَصْبَحَ عنِّي بِالْغُمَيْصَاءِ جَالسًـــــا فَرِيْقَانِ مَسْئُولٌ وآخرُ يســـــــأل

فَقَالوا لَقَد هَرَّت بِلَيل كِلَابُنَـــــــــا فَقُلْنَا أَذئبٌ عَسَّ أَمْ عَسَّ فُرْعُـــــلُ

فَلَمْ تَكُ إِلَّا نَبْأَةٌ ثُمَّ هَوَّمَـــــــــتْ فَقُلْنَا قَطَاةٌ رَيْعَ أمْ رَبْعَ أَجْـــــــدَلُ

فَإِنْ يَكُ مِنْ جِنٍ لأَبْرَحَ طَارِقًـــــــا وَإِنْ يَكُ إِنْسًا مَا كَهَا الإِنْسُ تَفْعَـلُ[1]

يسترسل هنا الشاعر بذكر حديث القوم في الصباح و تعجبهم من نباح كلابهم ليلا لمدة قصيرة ثم هدأت، و هذا إن دل على شيء إنما يدل على سرعة عدو الشنفرى لدرجة

[1] المرجع السابق، ص29 وما بعدها

أن الكلاب لم تلحظه مدة طويلة، حتى توقع القرم أن يكون نبحث لرؤية شيء سريع لن يكون إلا قصر أو قطاة، إذ تعودوا أن يقوم بالغارة جماعة من الرجال لا فرد واحد، وأن يشعروا بها فيدافعوا عن أنفسهم وحريمهم، أما أن تكون بهذه الصورة الخاطفة فهذا الأمر غير مألوف، ولعل الذين قاموا بها من الجن لا من الإنس.

وبعد ذكره في الأبيات السابقة قدرته على تحمل البرد الشديد و مواجهته للصعاب، يذكر في هذه الأبيات مدى تحمله للحر الشديد، فرب يوم شديد الحرارة تضطرب فيه الأفاعي رغم اعتيادها شدة الحر، فيواجه لفح حره دون أي ستر على وجهه، و عليه ثوب ممزق لا يرد من الحر شيئا قليلا ، يقول:

وَيَوْمٌ مِنَ الشِّعْرَى يَذُوبُ لُوَابُـــــه أَفَاعِيْهِ فِي رَمْضَائِهِ تَتَمَلْمَـــــــلُ

نَصَبْتُ لَهُ وَجْهِي وَلا كِنَّ دُونَـــــهُ وَلا سِتْرَ إِلَّا الأَتْحَمِيُّ الْمُرَعْبَـــــلُ[1]

يعني أن الشنفرى كان يعاني صراعا يرمي من خلاله إلى الانتماء إلى قبيلته مرة أخرى.

وأما قوله:

وَضَافٍ إِذَا هَبَّتْ لَهُ الرِّيْحُ طَيَّـــرَتْ لَبَائِدَ عَنْ أَعْطَافِهِ مَا تَرَجَّـــــــلُ

بَعِيدٌ بِمَسِ الدُهْنِ والْفَلْيِ عَهْـــــدُه لَهُ عَبْسٌ عَافٍ مِنَ الْغُسْلِ مُحْوِلُ[2]

[1] المرجع السابق، ص30 وما بعدها.

[2] المرجع نفسه، ص31 وما بعدها.

يصف الشنفرى شعره بأنه منذ زمن بعيد لم يعرف الدهن والفلي وهو إخراج الحشرات من الشعر، حتى جفت عليه الأوضار كما يجف الروث المتعلق بأذناب الدواب عليها، فلماذا يذكر هذه الأوصاف؟ ليس الفخر بالطبع ولا لإثبات تعاليه على شيء من الطبيعة ولا استغنائه عن شيء، إنما لم يحتمل كتمان ما يشعر به الصعلوك من القهر فطاشت المعاني المكبوتة كلمات يلوكها في قصيدته، ما يدل على مدى المشاعر المتناقضة بداخله والاضطراب النفسي الذي يعيشه.

وفي هذه الأبيات نجد ذكر لقوته وصبره وتعاليه وتجلده، فمن شدة سرعته على أرض مقفرة خالية ألحق أولها بآخرها.

يقول:

وَخَرْق كَظَهْر التُّرس قَفْر قطعْتُـــــه بعاملتَيْن ظَهْرُهُ لَيْسَ يُعْمَـــــــــلُ

فألحقت أُولاه بأُخراه مُوفيًـــــــــا على قُنَّة أُقْعى مرارا وأمثِـــــــلُ[1]

إن التشبث بالذات والإصرار والعزم عليها، هو المصير المحتوم الناتج عن ضغوط الصحراء التي تحاصره والتي تضرب أطواقها حوله، لذا نراه يواجه الكنايات المعادية له، كي يؤكد أهمية ذاته، ويخفف من حالة الحصار المضروب عليه من جراء الضغوط البيئية الحادة، ويظهر ذلك جليا في تصويره للحيوانات التي تعيش معه في الصحراء، يأتي في مقدمتها (الأراوي)، ولعل حديثه عنها يمتثل نماذج حياته، وشخصية الشاعر التي ترزح تحت القهر والخوف.

[1] المرجع السابق، ص32.

وفي الأخير يختم القصيدة بذكر أنسه الوعول في الصحراء مؤكدا على استغنائهم عن قومه. بالكاد هي صورة بارزة تعكس انفعالات الشاعر ، وتصور لنا معيشته في فيافي الصحراء في قوله:

ترود الأراوي الصحم حول كأنهـــا عذارى عليهن المُلاء المذيـــــــلُ

ويركدن بالأصال حولي كأننـــــــي من العصم أدفى ينتحي الكيح أعْقَــلُ[1]

تتخذ هذه الدراسة من لامية العرب للشنفرى نموذجا للكشف عن الظواهر اللغوية والاجتماعية والذاتية والنفسية والفنية في شعر الصعاليك، وهذه الظواهر هي التي تنظم شعر صعاليك العرب الجاهليين، وتبرز لنا اغترابهم بأنواعه، حيث تميز شعرهم بمجموعة من العوامل التي أثرت فيه بصفة مباشرة أو بصفة غير مباشرة، وقد وجهت هذه العوامل في العملية الإبداعية عند الشعراء الصعاليك، كما خلقت نمطا شعريا تتباين في موضوعاته وبنيته الفكرية، ويمكن أن نجمل هذه العوامل فيما يأتي:

* العامل الطبيعي: والذي يتمثل في قسوة بيئة الصحراء وفي المناخ، فقد وصف الشاعر(الشنفرى) الصحراء، بأنها شاسعة الأرجاء جافة يعلوها الغبار وتتلاشى فيها الأصوات، ولا أثر فيها للماء وفيها أماكن مجهولة موحشة، وحيوانات وحشية ضاربة تتربص لهم في كل مكان.

[1] المرجع السابق، ص33.

يقول السيد أحمد عمارة: «وإذا كان للبيئة دورها في تشكيل شخصية الإنسان ونوازع مناحي تفكيره فمن اليسير أن تتصور مدى مساهمة هذه البيئة الجافة القاحلة المتقلبة المناخ في نفسية الشنفرى وسلوكه، فقد عرفت البرد الذي يعقد ذنب الكلب والحر الذي يذيب رأس الضب، وشهدت لونا من التضاد الجغرافي كذلك حيث الجبال الشاهقة والأغوار المنخفضة كل ذلك أثر في أخلاقه فجعله مبالغا في عداوته مبالغا في محبته على حد سواء، وهي بيئة مليئة بالمحاذر ومصادر الخطر فيها متعددة –شأن كل البيئات الصحراوية ففيها الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية فضلا عن المخاطر التي يترقبها من الأعداء الذين يترصدونه.»[1]

* العامل الاجتماعي: يتمثل في ظاهرة الصعلكة التي تسببت في نفورهم ومعارضة نظام القبيلة وأعرافها معارضة مادية وفكرية، بسبب إصدار الأحكام على سلوكهم وأعمالهم الإجرامية كالقتل والغزو وسلب الأموال بغير حق، وقد ظهر هذا جليا في أخبارهم ومغامرتهم، وكذلك من تاريخهم الذي أرخت له القبيلة. حيث صور لنا حياة القهر والفقر التي عاشها من جراء معاناته مع ظروف قبيلته التي سلبته حريته واستقراره، فتحدث عن معاناته عن الجوع والضياع، كما صور معاشرته للذئاب المفترسة، فانفرد بتصويرها تصويرا صادقا دقيقا، فتحدث عن اعتصامه بالجبال فشبه نفسه بالوعل الذي يرافق (الأراوي)، بالكاد عكس لنا صورته في البيئة الصحراوية، وصراعه مع الحيوانات المتوحشة والمفترسة، فقد عبر بصدق عن التغيير الاجتماعي للصعلوك.

[1] السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق، ص70.

ويقول عمارة في موضع آخر: «كان الشنفرى من أغربة العرب الذين تسرب إليهم السواد من أمهاتهم الإماء، وشبهوا بالأغربة في لونهم, وكان العرب يكرهون السواد من كل شيء؛ لأنه يرمز عندهم إلى لون من السلالة المتخلفة التي لا تصلح لما يصلح له الأحرار، وقد نشأ صاحبنا مستعبدا في بني سلامان، تتدافعه القبائل وتزدريه، فشب يحمل عقدة الولادة ويرى ازدراء الناس له من غير ما ذنب جناه حتى أصبح لا يطيق صحبة الناس ولا يتحمل رؤيتهم، وأحسن له أن يعيش بعيدا عنهم في الفلوات، ويألف البراري والقفار، ويساكن الوحوش، ويعقد علاقة حميمة بينه وبين الضباع والأسود فهي خير له من مصاحبة الناس:

هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل

وبالإضافة إلى عقدة السواد التي كانت تتسرب في أعماقه كان الشنفرى يحس بعدم الانتماء وربما كان هذا هو السبب الجوهري في خروجه على المجتمع وعلى الناس.»[1]

* العامل الثقافي: لا يختلف هذا النوع من الاغتراب عن غيره من الأنواع، كونه ابتعاد ونفور الفرد عن مجتمعه وانسلاخه منها تماما، وثقافة كل مجتمع تتركب من العادات والتقاليد والأعراف والقيم السائدة في المجتمع، ومخالفة المعايير التي تضبط سلوك الفرد، حيث نجده يأبى هذه العناصر وينفر منها ولا يلتزم بها بتاتا، بل يفضل كل ما هو غريب وأجنبي عنها .

[1] المرجع السابق، ص67 وما بعدها.

* العامل الذاتي: لقد تحدث الشاعر عن أدوات القوة، فافتخر بذاته (شجاعته، عدوه، شهامته...)، كما افتخر بالسلاح وأدوات الغزو، ولم يكن حديثه عنها حديثا عابرا، وإنما كان حديثا يصف مضاءها وقوتها وصلابتها، وهذا الوصف يهدف إلى إثارة الرعب في قلوب أعدائه. وقد تمثل هذا الافتخار في ثلاث أهداف: الأول هدف إلى تأكيد ذات الشاعر وقوته وبطولته في غزواته، والثاني مناط بالثأر من أبناء القبيلة والنيل منهم، والثالث موجها مباشرة إلى الخصم والعدو ليهاب جانبهم، ويخاف من سطوهم.

* العامل النفسي: راجع إلى إحساس الشنفرى بالعزلة والتهميش من قبل القبيلة، لذلك تطرق إلى تجسيد صورة المحسوسات في قصيدته، واستمد معانيه من التجربة الحسية ونفسيته الجياشة، فهو لا يرضى لنفسه حياة الذل والمهانة.

يقول السيد أحمد عمارة: «إذا أضفنا إلى ذلك القبح الشديد في خلقة الشنفرى والدمامة التي تطالعها في وجهه وقسماته أدركنا سر نقمته على المجتمع وعلى بني سلامان خاصة، وإذا كان هؤلاء أقرباءه حيث أنهم فرع من الأزد التي منها عشيرته، فإن إساءات ذوي القربى وظلمهم إياه تحدث جراحات نفسية لا تلتئم فقد آتته الإساءة من حيث لا يحتسب بل من حيث ينتظر العون والمساندة. كما قال الشاعر القديم:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند»[1]

[1] المرجع السابق، ص69.

* العامل الاقتصادي: لقد رفضوا رفضا قاطعا قوانين القبيلة وخالفوها تماما، فهذه هي الثورة الاقتصادية التي دفعته إلى مهاجمة الأغنياء البخلاء، ليوزع ما يغنمه على الفقراء الذي كانوا يلتفتون حوله.

لا تخفى علينا أن لامية العرب احتوت على العديد من العوامل التي أدت بالشنفرى للاغتراب، وهنا اكتفينا بدراسة البعض منها فقط، لكن هذا لا يعني أنها لم تساهم في تغريبه، لأن تراكم هذه العوامل عليه من شتى النواحي، ما جعله يطلق عنانه ويسلك مسلك الاغتراب .

لكن يبقى العامل الاجتماعي بأشكاله الواسعة والمتنوعة هو أهم أنواع عوامل الاغتراب، لأن المفهوم الاجتماعي يتضمن كل ما هو متعلق بمبرزات الواقع الاجتماعي للمجتمع نتيجة التفاعل والتمازج الذي يكون بين أفراد المجتمع.

في الأخير نكون قد أنهينا ما أقدمنا عليه من محاولتنا إبراز تمظهرات الاغتراب في "لامية العرب" للشنفرى، فكان من أبرز النتائج المتوصل إليها ما يلي:

- موضوع الغربة والاغتراب له حضور ملفت في الشعر الجاهلي، خاصة عند الشعراء الصعاليك نتيجة لتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ... التي دفعت بهم إلى الابتعاد والنفور عن القبيلة ونُظُم الحياة الجماعية.

- من بين الشعراء الصعاليك الذين عانوا مرارة الاغتراب بأشكاله المختلفة، نجد "الشنفرى" ذلك الصعلوك الشاعر الذي خرج عن طواعية القوانين القبلية والأعراف المجتمعية، ليعيش حياة غربة واغتراب تجلت مظاهرها في حياته وأشعاره.

- تشكل الاغتراب عند الشنفرى من عناصر فنية وأخرى موضوعية، إذ اعتمد في العناصر الفنية مادته اللغوية من الصحراء والبادية والوحوش، لذا وجدنا ألفاظا وحشية، أما الموضوعية فقد اعتمد فيها على أنواع الاغتراب الذاتية والموضوعية، وفيها بين أساه ومعاناته في الغربة مبرزا في ذلك حرقة الصعاليك وهم بعيدين عن أهاليهم.

- لامية العرب قصيدة للشاعر الجاهلي الشنفرى، تحتوي على 68 بيتا، تنطلق من لسان البادية الأولى وحياة التشرد والتمرد، وهي من أشهر القصائد، وشهرتها الأدبية واللغوية بلغت الآفاق، وقد تناولها الأدباء والشعراء والبلغاء، وشرحها العلماء والدارسين.

– صور لنا الشنفرى من خلال لاميته حياة الصعلوك الجاهلي وروحه البدوية الوحشية، وكذا مغالبته مع الجوع بل وتغلبه عليه، في ظل الظروف القاسية، ما أجبره على استخدام ألفاظ وعرة وحشية.

– النزعة الاغترابية عند الشنفرى ناتجة عن إحساسه بالقهر والغربة النفسية، ليرفض من خلالها البقاء في كنف القبيلة، والتقيد بقوانينها الجائرة، فقد اختار الصحاري القفار ملجأ له، والوحوش أهلا غير أهله، بغية الهروب إلى مجال أرحب وأوسع.

– فضّل الشنفرى الرحيل والابتعاد عن مجتمعه، طلبا للتحرر من القيود، واعتزل الناس حتى يبرئ نفسه من الذل والهوان، وهذا ما يندرج ضمن الاغتراب الاجتماعي.

وفي الأخير نرجو أن نكون قد وفقنا في هذا البحث المتواضع حول موضوع الاغتراب عند "الشنفرى"، آملين أن يكون حجر أساس لدراسات بحثية أخرى.

والله الموفق وهو الهادي إلى طريق الرشاد، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* القرآن الكريم.

- ابن منظور (محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين الأنصاري الرويفع ي الإفريقي، المتوفى: 711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.

- امرِؤ القيس، الديوان، اعتنى به وشرحه عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة، بيروت–لبنان، ط4، 2004م.

- بسام خليل فرنجيّ، الاغتراب في أدب حليم بركات ، مجلة فصول ، المجلد الرابع ، العدد الأول، 1983م.

- جديدي زليخة، الاغتراب، المجلة الإنسانية والاجتماعية، جامعة واد سوف (الجزائر)، العدد الثامن، 2012م.

- حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006م.

- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، دار الجيل، بيروت، ط1، 1986م.

- سميرة سلامي، الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، دار الينابيع، ط1، 2000م.

- السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق، مكتبة المتنبي، د.ط، د.ت.

- سيغموند فرويد، قلق الحضارة، تر: جورج طرابيشي ، دار الطليعة، بيروت–لبنان، ط2، 1979م.

- الشنفرى، لامية العرب، شرح ودراسة عبد الحليم حفنى، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1429هـ/2008م.

- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت.

- عادل الألوسي ، العبقرية والاغتراب ، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط 1، 2003م.

- عبد اللطيف محمد خليفة، الاغتراب وأنواعه، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 2005م.

- عفيف عبد الرحمن، الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديما وحديثا، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، 1987م.

- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، ط1، 1412هـ/1991م.

- الفارابي (أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، المتوفى: 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تح: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط4، 1407هـ/1987م.

- كمال الدسوقي، ذخيرة علم النفس ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة، د.ط، 1988م.

- لزهر مساعدية، نظرية الاغتراب من المنظورين العربي والغربي، دار الخلدونية، الجزائر، د.ط، 2013م.

- ماجد قاروط، المعذب في الشعر العربي الحديث، إتحاد الكتاب العرب، لبنان، د.ط، 1999م.

- محمود رجب، الاغتراب وسيرة المصطلح، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1976م.

- يحيى عبد الله، الاغتراب (دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005م.

- يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ط، 1975م.

- يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، ط4، د.ت.

إهداء

تشكرات

مقدمة ..... أ

المدخل: الشنفرى..الصعلوك الشاعر

1. الصعلكة 11

1.1 لغة 11

2.1 اصطلاحا 13

2. نشأة الصعلكة 14

3. أسباب الصعلكة 15

4. مصادر شعر الصعاليك 16

5. الشنفرى 18

1.5 سيرته الحياتية 18

2.5 شعر الشنفرى 21

الفصل الأول: الاغتراب..تحديد المصطلح

1. مفهوم الاغتراب 24

1.1 لغة 24

2.1 اصطلاحا 26

1.2.1 في الفكر الغربي 26

1.1.2.1 عند "هيجل" 26

1.1.1.2.1 فقدان الوحدة مع البنية الاجتماعية 27

2.1.1.2.1 الاغتراب عن الذات (من خلال طبيعة الإنسان الجوهرية) 27

3.1.1.2.1 الاغتراب عن الوجود المستقل..... 28

2.1.2.1 الاغتراب عند ماركس (Marx) 28

3.1.2.1 مفهوم الاغتراب عند الوجوديين 30

2.2.1 في الفكر العربي 32

2. الاغتراب في العلوم 33

1.2 علم النفس 33

2.2 في علم الاجتماع 35

4.2 في علوم الدين 35

3. موضوعات الاغتراب 36

1.3 الاغتراب الذاتي 37

1.1.3 الاغتراب النفسي والروحي 37

2.1.3 الاغتراب العاطفي 39

3.1.3 الاغتراب التعويضي 39

1.3.1.3 العودة إلى الماضي 39

2.3.1.3 التمرد 40

2.3 الاغتراب الموضوعاتي 41

1.2.3 الاغتراب الزماني 41

2.2.3 الاغتراب المكاني 42

3.2.3 الاغتراب الاجتماعي 43

4.2.3 الاغتراب السياسي 43

5.2.3 الاغتراب الاقتصادي 44

4. جذور الاغتراب في الشعر العربي القديم 45

5. الاغتراب والشعراء الصعاليك 46

الفصل الثاني: الدراسة التطبيقية

1. لامية العرب 53

2. تجليات الاغتراب في لامية العرب للشنفرى 55

الخاتمة 83

قائمة المصادر والمراجع 86

فهرس الموضوعات 90

الملخص:

الاغتراب ظاهرة عرفها الإنسان منذ القدم، إنها تجربة نفسية اجتماعية شعورية، يتبناها كل من أحس بالقهر أو الظلم أو التهميش ... كما هو الحال بالنسبة إلى الصعاليك في العصر الجاهلي الذين ارتضوا حياة البراري والصحاري القفار على ما سلط عليهم من ذل واحتقار، أو ضيم وتهميش.

من أولئك الصعاليك نجد الشنفرى الذي تمرد على النظم السائدة في عصره، وانتفض ضد الأعراف الظالمة، وثار ضد قهر التقاليد القبلية، وقد نقل إلينا صورا من حياته تلك وما عاناه من حالة الاغتراب بكل أشكاله وبمختلف صوره، عبر أشعاره التي لا تزال مشرقة في الأدب العربي، خاصة لاميته المعروفة بـ "لامية العرب" التي تعد من أشهر ما نظم الشنفرى بل والشعراء عامة.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، الشعر، العصر الجاهلي، الصعاليك، الشنفرى.